Forget me not

Spirit Maze

-مقدمة-

قاعة ضخمة مزينة بالشراشف الفاخرة على جدرانها، طاولات مأدبة تكفي لإطعام مملكة بأكملها موضوعة على جانبي القاعة لإخلاء ساحة الرقص المتواجدة حول منصة خاصة تم تجهيزها بأرقى الآلات الموسيقية لإحياء حفلة راقصة مفتوحةٌ أبوابها لجميع من في المملكة غير أنها الآن صارت للأشباح..

بدل أن يحمل كل موسيقي آلته ويعزف عليها كانوا يعانقون أرضية المنصة غارقين في دمائهم، وبدل أن تمتلئ ساحة الرقص بأزواج عرضوا على مرافقيهم الاستمتاع برقصة أخيرة قبل نهاية الحفلة صارت ملتقى جثث كانوا يجهلون أن رقصتهم تلك كانت الرقصة الأخيرة في حياتهم..

الشراشف حالها حال تلك الجدران الذهبية تلطخت بدماء الحاضرين وطاولات المأدبة صارت تحمل عليها الجثثَ هي الأخرى وآثارَ تشبثهم بها كغيرهم من البشر المحبين للتشبث بحياتهم لآخر نفس يلفظونه..

من كان ليعلم أن حفلة ضخمة كهذه ستنقلب لمأتم؟! من كان ليعلم أن إصراره ومحاولاته اليائسة للحصول على مكان له داخلها وسط كل تلك الحشود سيقوده للقيان حتفه؟ من كان ليعلم أنه يسير فرحا مسرورا نحو نهايته؟

الأدهى والأمر، أن الملك بنفسه لم يسلم من هذه المجزرة.. بعد أن كان مستمتعا بإقامته لحفلة ضخمة وبالاحتفال لمناسبة عظيمة كهذه ها هو على عرشه خائر القوى خال من الروح التي فارقت جسده لتلقى بارئها والدماء التي تدفقت من جراحه كسجاد أحمر على الأرضية، سجاد سار عليه ذاك الشاب بفخر وانتصار ليقف أمام كرسي العرش.. أمام جثة الملك الميت.. أمام والده.

أزاح الجسد الفارغ من الحياة جانبا فسقط أرضا ثم جلس على كرسي العرش واضعا رجلا على رجل وذراعاه مستريحتان على يدي الكرسي.

- لا تظني أني آسف على تخريبي لحفلة عيد ميلادك لأني واثق انك لست نادمة كذلك على تخريب حياتي في مثل هذا اليوم قبل ثمانية عشر سنة... لا داعي لكرهي أيضا فأنا فقط أسترد ما هو لي، القدر صنع لي بعض المشاكل ليبعد عني حقي لكني لست بالشخص الضعيف كي أستسلم عنه.

قال بتعالٍ وابتسامة الخبث المشبعة بالشر تعلو محياه.

****

- 1 -

الأحلام مجرد بوابة تسمح للأعماق بأن تطفو على السطح لما يفقد المرء السيطرة على وعيه، مجرد مرآة تعكس للمرء حقيقته، تُذكره بمن يكون.. وأحيانا تكشف له من يكون.. لكنها لعالم خطير على شخص بالكاد يتمسك بشتات نفسه، فلا انعكاسه سيبدو واضحا ولا حقيقته ستبزغ في سماء أعماقه لكي يتمكن من فهمها، كل ما قد يحدث هو أنه سيجد نفسه تتخبط بين الواقع والخيال.. بالتحديد في منطقة الأوهام.

وهي بالضبط هناك كانت.

تحت ضوء القمر المكتمل الذي يتسلل من بين الغيوم التي تمنعه من أن يشع مخافة أن يتغزل به أحد غيرها، كانت مغلفة بعباءتها بين أشجار الغابة، تسير بخطى سريعة.. أنفاس مرتعشة ونبضات مضطربة. دون وجهة معينة أو طريق معلوم، تساير المجهول ومتجاهلة للمحن التي من الممكن أن تقع فيها بسبب ذلك غير مستوعبة أن بين الأحلام والواقع فراغ شاسع، فراغ هي لم تتمكن من استشعاره بسبب البتلة التي في يدها غير مدركة أنها ليست سوى خدعة تتلاعب بعقلها فهي جزء مريب من قوة غامضة تستقطبها من مكان ما.

من يمكنه أن يصدق بأن حلما بسيطا رأته على حين غرة لما نامت سيدفع بها إلى حافة الجنون.. والفضل يعود لعُثورها على دليل ملموس من عالم الأحلام الذي كانت تطفو فيه.. بتلة منيرة بلون الجمر بين أصابعها، لذا كيف لها أن تُكذب خيالها ودفء الحلم الذي أتت منه وجزء منه حاضر يلامس بشرتها؟ كيف يمكن للتعويذة ألا تكون ناجحة في التأثير عليها والسيطرة على رغباتها في حين أنها قد دفعت بها كي تتهور - في لحظة ضعف خالصة - وتخرج من دفء سريرها.. ترتدي عباءتها وتقرر أن عليها المغادرة، لأنها اللحظة.. لأنها الفرصة.. لأنها لن تكون قادرة على اتخاذ قرار كهذا بكامل وعيها ولن تحصل على نفس نبضات الشجاعة التي تجري في عروقها مرة أخرى والتي تساعدها على تتبع الإحساس الغريب الذي لطالما شعرت به يخالجها في سِرها.. الإحساس الذي استيقظ معها بعدما طفى على السطح ما إن تسلل من العمق.. والذي قاد بها للغابة.

وقد كان للتوقيت سحره هو الآخر.. منتصف الليل، موعد استيقاظ الوحوش، تزامن صدفة مع استيقاظها، لذا لم لا تعتبر نفسها وحشا من صنف ما؟ صنف فريد ونادر لا يظهر إلا في ظروف خاصة، ظروف اتفقت مع بعضها بانبثاق حلم بسيط ذي تأثير كبير مع توقيت متلاعب بالعقول على أن تفك القيود عنه وتمنحه فرصة الحصول على حريته.. ظروف كقمر مكتمل ونداء مميز يوقظ الغرائز الدفينة - لمثل هذا الوحش - التي ستدفع به كي يخرج من جحره..

"تعالي، أنا أنتظرك"..
عبارة سحرية متينة كانت أهم عنصر من ذاك الحلم الغامض.. عبارة كفيلة ببث الخراب من ثم نسج خيوطٍ وهمية للتَحريك عن بعد، عبارة قامت بزعزعة كيان الحالمة وصَدمت أحاسيسها ببعضها، رغم الهدوء والسلم اللذان كانا يحيطان بالشخص الذي نطقها داخل الحلم إلا أنها كانت قوية كفاية لِتمزج الأعماق والحقيقة في وعاء واحد أدى لاندلاع عاصفة حسية عبثت بالاستقرار الداخلي لصاحبة الحلم ومع ذلك فإن لتلك العبارة حدًا آخر، فقد كانت كالفتيل الذي يتم إشعاله داخل قوقعة العتمة، لا ينشر دفئا لكنه يبث أمانا من خلال إظهار معالم المكان الذي يقف فيه المرء.. لمحة من الأعماق أو الاتجاه الذي يجب السير عليه للخروج من الظلام..

صوت الرياح العاصفة وبرودة الجو كان لهما الفضل في إيقاظ حواسها ووعيها للأمر الواقع لكنهما لم يكونا كافيين في جعلها تعدل عن الجنون الذي تخوض فيه، الأمر بدأ بالانسياق خلف الأثر السحري للحلم المغرق بلون الخوخ الذي عاشته في

لاوعيها لكنه الآن تحول إلى الهرب الفعلي من ذاك القاع الموحل، من تلك الأيادي الخبيثة التي تمسك بها وتسحبها نحو الدرك الأسفل لأجل نوع رهيب من الأهداف الشيطانية.

استيقظت من التنويم الذي أدى بها خارجا لكنها لم تتوقف لتسأل نفسها عما هي بصدد فعله، بل شكرت أيا من أو ما تسبب في هذا، شكرت العالم على صنعه لمثل هذا الصدع لأجلها.. شقُ هروبها، منفذها السحري لتسلخ بفضله نفسها من الظلام الذي كانت قابعة فيه رغما عنها. صارت تركض حماسا للأمام رغم جهلها إلى أين تقودها أقدامها، فقط صوت عميق بداخلها يناديها اتخذته بوصلتها ولا يمكنها ألا تلبي النداء.

الرياح اشتدت، جعلت الغيوم تتحرك وتبتعد عن القمر ليكشف عن وجود تلك المتسللة هناك في الأسفل.. وليس نوره فقط من كشف أمرها بل حتى المكان الذي هربت منه تفطن لاختفائها، بالتالي أطلق الأبواق وقرع الطبول منذرا بوجود اضطراب يخل بالنظام. صهيل الأحصنة المستَشاطة الذي تعالى بعد وقت قليل من صوت الأجراس والأبواق أجْفلها فسكنت مكانها بغتة بسبب انهيار الحماس والشجاعة اللذان كانا يدفعان بها نحو الأمام دون تفكير.

أخيرا استفاقت كما يجب، استعادت صوابها وإدراكها التام للواقع ما إن وصلها امتزاج صدى صهيل الأحصنة مع صياح الفرسان الذي كان حادا يمزق سكون الليل وهدوءه بطريقة جارحة للسَمع بواسطة الرياح.
نظرت ليدها تتفقد البتلة التي تكون سبب المأزق الذي وقعت فيه الآن لكن لم تجدها، ولا حتى أثر بسيط لها. رُفع ستار الوهم الذي غلف عقلها بخُدعته لتتحول من شخص يغمره عبير الحماس إلى شخص يرتجف بردا ورعبا، إلى شخص يشعر بروحه منهارة أمام قدميه.. شخص شلت حركته لأن الواقع زأر في مسمعه بوحشية ليذكرها أنها ما تزال في قبضته.

عاد الظلام يكتسي المكان لما تمت تغطية القمر بكتل السحب الكثيفة مجددا، الهاربة المشلولة وسط الغابة كانت في حالة حرجة من الهلع والرعب، انقلبت الأوضاع لتصير كابوسا بشكل مفاجئ جدا، تسارعت أنفاسها ونبضاتها، ضاق بها صدرها.. كانت ترمي بعينيها هنا وهناك تراقب محيطها، وحدها في قلب الظلام بالكاد يمكن رؤية أكثر من عشر أو عشرين بوصة للأمام.

هي مطاردة، مع ذلك لا العودة أدراجها وتسليمها لنفسها لهم أرادت، ولا مسلك الفرار من قبضتهم عرفت.
تلاشى كل شيء، خانتها دواخلها، انطفأ الفتيل الذي ألهبها.. لم يصمد طويلا، نفخة بسيطة فوقه قضت عليه بالتالي عادت لنفس حيز الضياع الفارغ ذاك.
أمسكت بطرف ثوبها تستجمع قواها، تعيد مراجعة رغباتها.. تبحث عن نبضة خافتة من الشجاعة بداخل شراييها.. تحاول أن تعيد صنع قرارها..
كم مضى من الزمن وهي تفكر في فعل هذا؟ كم من مرة انعزلت مع أفكارها تبحث عن مصدر للشجاعة يُمكنها من إنقاذ نفسها من تلك القيود الفاسدة؟ كم مرة انتظرت اللحظة المناسبة لترتمي بداخلها وتفعلها؟.. والآن.. ماذا عن الآن؟ هي بجوف كل ذلك.. الآن وفقط الآن حصلت على فرصتها، إن ضيعتها عليها تقبُّل واقعها، تَقبُّل حياتها، وتَقبُّل كل شيء قادم.

أغمضت عينيها، تغوص لعمقها حيث تترجى دواخلها، تترجى آمالها.. رغبَاتها.. إرادتها، تترجى أي شيء موجود هناك في حضيض روحها أن يلتهب بقوة.. بشراسة.. بوحشية، أن يشتعل كنار جحيم تبيد كل عائق يحجزها في ذاك القاع المتعفن لكن لم يتواجد شيء، ما عدا طائر ناري فارد جناحيه ينظر للأعلى ثم حلق بعيدا مخلفا بعض الشرارات الملتهبة في أثناء طيرانه نحو أفق مظلم.. من بعدها اختفى.

****

رغم كون ظهوره في خيالها موجزا تكاد أن تنعدم فائدته، إلا أنه أوضح لها المسار، الانعدام..
كان الحل في الانعدام، لذلك قررت أن تواصل الركض في سبيلها إلى أن تنعدم تلك الأصوات مجددا، إما بابتعادها عنهم كفاية أو باستسلامهم عن العثور عليها. رغم أن فرصة تحقق الخيارين منعدمة بدورها إلا أنها قررت أن لا تعدم الأمل، لربما تحدث معجزة ويتحقق أحدهما..
بدأت بالتنفيذ أخيرا، وكلها عزم على بذل كل ما باستطاعتها بل وأكثر حتى تحقق ما يجول في عقلها، أمسكت بفستانها لترفعه من على الأرض وتركض بأريحية وأمان متفادية ما قد يعرقل هروبها من حوادث، لكنها ركزت على الهرب متناسية أن عليها رسم سبيل لذلك في عقلها..
ركضت بعشوائية ولعشوائيتها دفعت الضريبة.. لم تنتبه للأرضية المنعدمة التي خطت عليها آخر خطواتها فهوت نحو الأسفل!
كانت قد اختارت طريقا واختيارها كبقية اختيارات حياتها لم يكن موفقا.. قررت أن تواصل الركض مع طريق معبد عثرت عليه في قلب الغابة، لكن نهايته قادتها نحو أعمق نقطة فيها.. فانزلقت من قمة تلك الهضبة التي كانت عليها لسفحها الذي بدا مهجورا كئيبا ومرعبا لدرجة تجعل مقامه يليق ليكون مسرح كابوسها الذي توشك على عيشه بعد قليل..

بينما تحتضن جسدها المتألم تحت ذاك المنحدر محاولة الاختباء راجية أن يكون لاختباءها فائدة، أطل القمر عليها مرسلا نوره القوي عليها مفسدا بذلك اختفائها والأسوء أنها سمعت من فوقها صوت حوافر تدهس أوراق الشجر الصفراء الميتة التي سقطت من أشجارها بعد وداع أخير فرضه عليها الخريف القاسي، ورأت ضوء شعلة من نار ينتجها احتراق مشعل خشبي في سبيل خدمة سيده يمر من الأعلى يمنة ويسرة لعل صاحبه يعثر على أثر ولو كان صغيرا لمرورها من المكان، لكنها حرصت على أن لا تشعرهم بوجودها هناك، رغم أن آثار أقدامها قد تفضحها، لكن ما من أثر لها على هذه الأرضية التي وطأتها توا.. لذلك ظنت أن فكرة كونها مختبئة هناك لن تخطر عليهم، لكنها سبق وفعلت!

لذلك هي مضطربة، مختنقة، تخشى أن يتم سحبها مجددا نحو ذاك القاع الموحل وهي بالكاد أخرجت رأسها منه كي تتنفس الهواء بدل الطين القذر الذي يخنقها باستمرار.
يقال أن الإنسان بطبيعته يغزوه الطمع، لذلك ما إن يتذوق القاطن بين أسوار الاحتجاز هواء منعشا تنفسه من نافذة فُتحت في زنزانته فجأة سيطمع في استنشاق الهواء من كل شبر في هذا العالم الشاسع.. وسيسعى لنيل حرية أكبر ما إن تجول في الزنزانة بعد أن فُكت قيوده..

كذلك هي ترفض أن تترك هذه الحرية غير آبهة بالثمن الذي عليها دفعه سواء كان أضرارا جسدية أو نفسية! لم يهمها ذلك طالما أن النتيجة النهائية تضمن سلامتها، لذلك ظلت تدعو بإخلاص أن تعمى أبصارهم عنها، وذاك ما حدث!

وقف القدر بجانبها جاعلا ذاك الجندي الذي كاد أن يجدها يستسلم عن البحث عنها هناك، لذلك أبعد شعلته بغضب فتساقطت منها شرارات صغيرة اتخذت سبيلها بحرية فاستقر نصفها على ثوب الهاربة المختبئة محرقًا إياه تاركا آثار المشاركة في هذا الصراع كتذكار فخري لها في حالة النجاة ، بينما النصف الآخر تبعثر على الأرض منطفئا كروحها التي تتكبد كل هذه المشقة لتحاول الاشتعال مجددا..

مع انسحاب ذاك الجندي من مكان اختبائها، عاد القمر ليختبئ خلف غيومه العزيزة، محدثا باختفائه شيئا عجيبًا! زهور الأمل قد نمت في موضع سقوط تلك الشرارات، كأن هذه الأخيرة قد امتصت من نور القمر ما يكفيها كي تتحول لمصدر أمل جديد

لها مباشرة مع اختفاء القمر.. بتلات عديدة ظهرت على الأرض تشبه تلك التي ظهرت في حلمها وبعده عند استيقاظها، تلك البتلات التي قررت أن تعينها مرشدة لها نحو بر الأمان..

التقطت بعضها بلهفة وتركت موضعها دون تفكير كأنها تسابق الوقت، وهي كذلك.. وأخذت تسير في الاتجاه الذي يخبرها إحساسها أن هذه البتلات تقودها إليه..

في العمق الفعلي لتلك الغابة، وبعد وقت طويل من السير فيه، تخللها شعور سيء، حدس غريب بأن شيئا خطيرًا على وشك أن يحدث، وحدسها لم يسبق أن خانها عندما يتعلق الأمر بالأحداث السيئة!

بتلاتها، منقذتها من الضياع قد ضاعت منها، اختفت من يديها كسراب لم يسبق له أن كان واقعا، فتركتها تدور حول نفسها كجرو ضائع، ونور القمر الذي عاد ليظهر قد زاد الأمور سوءا بتساقطه عليها كأنه يقوم بفضح مخبئها لمطارديها.. لذلك هي تبحث عن حل مجددا، تلتف حول نفسها بينما تقضم أظافرها من شدة التوتر، تنتقل من مكان لآخر كما لو كانت على وشك اتخاذ قرار ثم تعود كأنها تسحبه في آخر لحظة.

لكنها في نقطة ما توقفت عن الحركة وقد بدا عليها استيعاب حقيقة مهمة.. لفها ودورانها حول نفسها قد سبب لها تضييع الطريق الذي أتت منه، بالتالي لن تعلم السبيل للتقدم إن أرادته ولن تعلم السبيل للعودة إن أرداته..
في لحظة ما، حاسة الشم لديها دقت إنذار الخطر، لتزيد من معاناتها أضعافًا.. وتزيد جنونها جنونا..
رائحة الدماء عبقت في الأرجاء، رائحة خطيرة وتنذر بالخطر، رائحة تعيد لعقلها مشاهد مرعبة ومشاعر قاتلة، توقظ كل هواجسها داخلها وتجعلها ترتعش وترتجف بقوة كما لو أنها رأت وحشا ضاريا أمامها، وهذا لأنها تعني شيئا واحدا لا ثاني له، أن الموت بالأرجاء!

في البداية ظنت أن الرائحة تأتي من الطريق الذي تواجهه لذلك بسرعة قررت الالتفات والمواصلة في الطريق المعاكس غير آبهة بنهايته، حتى وإن كان سيعيدها لسجنها، لم تهتم بذلك بقدر اهتمامها بضرورة الهرب من هذا المكان وإنقاذ نفسها من هذه المشاهد الدموية التي تتضارب في عقلها دون توقف..
لكن في لحظة التفاتها لمحت ضبابا بنفسجيا منتشرا في الأرجاء، مع ظل أسود يقتحمه هناك على بعد بضعة أمتار، عيون بنفسجية مشعة كزمرد نادر الوجود، يدنو مقتربا إليها، وكلما اقترب تعرض لضوء القمر فانكشف البعض من ملامحه.
تجمدت كصخرة لا تقوى على الحراك ما إن لمحته، وشعرت بقلبها النابض يفقد أعصابه وينطلق في جنونه هو الآخر وكأنها تركض بأقصى ما لديها..

ابتسامة مريبة تراءت لها من بعيد تعلو محياه سامحة لأنيابه التي تشبه أنياب الافعى بالبروز، خصلات شعره المتموجة السوداء تصل لكتفيه، هيئته المريبة التي لا تناسب هيئة البشر كما يجب وبعض المواصفات الأخرى التي لا يمكن تحديدها بسبب قلة الضياء في البقعة التي يقف فيها ومسك الختام يداه ذاتا الأظافر الحادة مغطاة بالدماء، دماء طازجة ساخنة يمكن معرفة ذلك من طريقة السيلان المنساب بسلاسة ومن البخار الصادر منها، لا بد أنه قضى على فريسة ما بالأرجاء.. هذا الاستنتاج زاد من جنون تلك المتجمدة مكانها والمشلولة بسبب تواجد هذا الغريب أمامها ونقطة ضعفها - الدماء - معا على نفس البقعة، كابوس حي تراه وهي بكل وعيها الواعي.
قال شيء ما وهي بغرابة سمعته رغم المسافة التي بينهما ورغم أنه كان خافتا..

- أخيرا.. وجدتك.

****

بقدر ما أشعَرتها كلماته بالرعب إلا أنها أحست بالسلام عند سماعها وهذا راجع للنظرات الهادئة التي كان يرمقها بها، مع ذلك هذا لا يعني أنها لم تعش تقلب درجة الحرارة داخلها برمشة عين، كأنها ماتت وعادت للحياة.. فقد شعرت بروحها وجسدها ينفصلان للحظات سريعة التتابع. بدأت ترتعش وترتجف من الخارج للداخل ومن الداخل للخارج، وقلبها كان وسط الاتجاهات المتعاكسة للهلع.. والولع الذي بغرابة تفجر بغتة، لم تستطع التفكير في أي شيء، وكأن الصاعقة ضربتها ففصلت بين عقلها ودماغها لتمنعها من تقرير ولا أي حركة في المكان، كان من الممكن سماع الهدوء رغم صوت الرياح العاتية الذي يصفر بين أشجار الغابة.

فقط هي وهذا الغريب الغامض، أكثر دقة.. عسليتاها وبنفسجيتاه في لقاء مألوف، لقاء انتظر طويلا..تُرُقِّبَ لقرون من طرف زوج واحد من تلك الأعين..
كان هنالك شعور غريب يخالجها، شعور دافئ لم يسبق لها أن عاشته من قبل، شيء كانتماءها لوحدها بشكل خاص لرقعة ما من الخريطة وبكل فخر يمكنها أن تصرح بذلك، أو كتاج بجوهرة فريدة يخصها هي وحدها، هي مالكته التي لن تشعر باكتمالها إلا وهو يتربع على خصلاتها الداكنة، كلا الأمر أعمق من هذا بكثير وهي استشعرته بوضوح.. شعور لن يحس به إلا المولود الجديد.. لكنه ينسى أمره ما إن يكبر، ألا وهو استنشاقته الأول للهواء الممتزج برائحة والدته التي سيطالب بها ببكاءه، هذا ما كان يطالب به قلبها من خلال هذا الشعور الذي يمثل البكاء لحد ما، بكاء حاد حارق.. متألم حتى.

تحت سحر هذا الشعور رمت بخطوة للأمام.. نحوه، وهو رد بالمثل لكن بخطوتين إلى ثلاث سريعة تعادل خُطوتها البطيئة الوحيدة المترددة بعض الشيء، ثم تغيرت ملامحه الهادئة المريبة بطريقة ما إلى ملامح لشخص في شوق عظيم.. شوق يحترق بداخله منذ أمد بعيد، انفتحت عيناها وهي تراه يسرع إليها بِضبابه البنفسجي الذي يحيطه بلهفة كي يمحو المسافة بينهما..

ما إن كاد يصلها ليضمها نحوه، بوغت بهجوم شرس من طرف ذئب رمادي ضخم البنية حال بينها وبين الغريب صاحب الضباب البنفسجي الذي تم رميه أمتارا بعيدا عنها ما إن كان على بعد خطوة أو اثنتين منذ لحظات، انتفضت.. خرجت من تنويم ذاك الشعور الذي أنساها نفسها وشغل حواسها، تلك الخطوة للأمام التي وضعتها منذ قليل قامت بمحوها بعدة خطوات مَهلوعة للخلف.. انكمشت ملامحها خوفا ولم تقاوم نفسها في ألا تصرخ بقوة وانعكاس الموت يبرق في عينيها.

مجموعة الحراس الذين خرجوا بحثا عنها تنبهوا لمكانها لما مزقت صرختها جوف الليل، بالتالي دون انتظار أية أوامر الكل تلقائيا راحوا يركضون بسرعة في اتجاه الصوت قبل أن يفقدوا مصدره في عمق الغابة.

زمجر الذئب بخشونة لتهديد ذاك الغريب الذي كان يرفع نفسه وسط ضبابه البنفسجي من الأرض، من ثم استَدار لليسار نحو المرتعبة قبالة أقوى مشهد من الكابوس الواقعي الذي تعيشه.. رمقها في هدوء حاني، نور القمر الذي ينعكس من عينيه الفضيتين جعل بدنَها يقشعر وأفقد لقلبها نبضة من النبضات المتسلسلة، ثم رفع رأسه عاليا يعوي للبدر المكتمل. في أثناء عويله هَمْسٌ صدر قرب أذنها يقول.. "ابتعدي.. اهربي"، جعلها تنتفض.

أطلق صاحب الضباب صيحة حادة غاضبة تسبب الصمم، ولم تكن سوى ثواني ليحدث تشابك بينه وبين الذئب يدخلان به في صراع محتدم. هي كانت تشاهد مفجوعة في الخلف، في عالم حيث البقاء للأقوى.. لسوء حظها كانت أضعف حلقة من السلسلة.. لكن للطبيعة اسلوبها الخاص لتسخر وتتلاعب بالأقدار، فهذا الضعف لو تم التخلص منه ستتحطم السلسلة ويتم فقدان التوازن بالتالي تتبعثر الأجزاء الأخرى وتضيع.

"الآن.. اهربي" ، ...
تكرر ذاك الهمس ما إن تشابكت الغيوم دافنة القمر خلفها، شعرت بعباءتها ترتفع من الخلف فتجمد الدم في عروقها، ببطئ استدارت لترى ما المفاجأة غير السارة التي عليها مقابلتها الآن أيضا، لكن لم يكن هنالك أحد.. فقط طرف عباءتها مرتفع بشكل مريب في اتجاه يمناها وكأن أحدهم يرشدها للطريق الذي عليها الهرب فيه. ابتلعت ريقها.. لم تعرف ما العمل، بل جسدها لم يكن قابل للتحريك من موضعه.
ثم شعرت بوجود قبضتين تمسكان جانبي ثوبها.. لم تستطع استيعاب ما يحدث معها، ولم تستطع أن تفهم ما الخطب.. كيف لها أن تتحرك في الاتجاه الذي ارتفعت نحوه عباءتها وتصير تركض مبتعدة عن المكان دون أن تقرر هي ذلك، من هذا الذي يحركها؟ أيوجد شيء ما تلبَّسها؟ أدخلت منطقة محرومة دون أن تدري حيث كل الأمور الخارقة المحرَّمة تحدث؟
أجل لا بد أن الأمر كذلك، فـذاك الكائن الغريب ذو الشكل الشيطاني والذئب الذي هو الآخر يبدو أنه ينتمي للعالم السفلي من خلال مقاسات حجمه الخيالية تلك خير دليل.

سارت بين الأشجار، بعقل فارغ لا تدري ما الذي تفعله أو إلى أين هي تتوجه، لا تعلم لم هي تسير حتى، كانت شاردة، فاقدة للإحساس بالواقع، ليست مشغولة مع أفكارها أيضا.. تتبع التيار، تنقاد من طرف أحدهم، فقط هائمة بقلب الضياع إلى أن وصلت لمكان خالٍ من الأشجار.. مكان منشرح في ركن ما من الغابة.. مكان مغروس فيه شواهد القبور عوض جذوع الأشجار، المقبرة.

ذاك الشيء الخفي الذي سحبها من ساحة القتال وسار بها بين أشجار الغابة إلى هنا أكمل خطواته الأخيرة قائدا لها لِداخل المقبرة نحو تمثال يقف بشموخ في المنتصف.
وقفت قبالته بعيون شاخصة، جامدة كأنها فاقدة لوعيها لكن لم يدم هذا طويلا فقد اتسع بؤبؤيها ما إن سمعت زمجرة بالقرب، استدرات يمنة ويسرة تتحقق أين ذاك الذئب يقف، أوصل إليها بهذه السرعة؟ كيف؟ ما الرائحة التي استنشقها منها كي يتبعها؟ أوليس من عادات المفترسين تتبع رائحة الدماء فقط! هي واثقة من أنها لم تحصل على أي نزيف ولا حتى جرح واحد طفيف.

لم يكن هنالك أحد، الضباب الذي يغلف المقبرة والسماء الملبدة بالسحب لم تسمح لها برؤية محيطها كما يجب لكن مع ذلك كان من الممكن أن تعرف أنه لا يوجد أحد، بالتالي أعادت نظرها نحو التمثال الذي شعرت أنها رأته في مكان ما سابقا فالسيف الذي يخترقه أحست به يمثل قصة تجهلها من حياتها في زمن ما.
زمجرة ثانية صدرت، لم تتعب نفسها في تفقد أين هو صاحبها لأنه جَنَّبها عناء البحث عنه هنا وهناك فقد ظهر من خلف التمثال ودنى باتجاهها بضعة خطوات أخرى من ثم توقف يناظرها محني الرأس، أشعَّت فضيته في الظلام.. بالتالي مرة أخرى قلبها خَلَّف نبضة من النبضات.. السبب مجهول لكنه ليس الرعب حتما.
لم تعلم ما العمل، الآن فقط تمكنت من استشعار أمر كونها خارج وعيها فهي لم تجد ولا أية فكرة تضعها في حيز خيالها لتقلبها هنا وهناك صانعة بها أسوأ الفرضيات.

****

السكون حل بالمكان لبعض الوقت لكن تم إفساده بعدة صواعق أفقية جاءت من خلف الفتاة الجامدة مكانها وتفرعت على جانبيها ثم توجهت مباشرة نحو الذئب الواقف قبالة الفتاة فتم بعثه بعيدا في الأفق لدرجة منعت الفتاة من معرفة موقعه بسبب كثافة الضباب. استدارت مباشرة ترى من الذي صنع مثل هذا الشيء الحابس للأنفاس وقد كان بالضبط خلفها لدرجة انها ضربت وجهها بصدره وهي تلتفت.

- للمرة الألف، كما وعدتك ... وكما صدَّقتِ وعدي.

صاحب العيون البنفسجية، تعرفت عليه من نبرته.. من شعاع عينيه اللتان كانتا كل ما يظهر في الظلام، ومن لمسته التي تحاول أن تتذكر متى بشرتها تحسستها سابقا.
انامله كانت دافئة كالنار ووجنتها كانت باردة كالصقيع.. بالتالي كل واحد منهما شعر بجزء من الأخر بفضل التناقض الذي بينهما. هي استشعرته هو.. ورعبها معا، فعند إنزاله لإبهامه نحو فمها مبقيا بقية أصابعه على وجنتها، ليس فقط الرائحة وحدها ما ضربت حواسها واعصابها بل المادة بحد ذاتها استقرت على شفاهها.. الدماء، والأسوأ أنها تذوقت طعمها لأول مرة، أخيرا علمت كيف هو مذاق خوفها.. أسوأ من منظره ورائحته بكثير، اجل لا يمكن معرفة كمية تركيز الشيء الا بعد التوغل فيه، لكن هي لم تهتم به لحد الجنون لان هنالك شيء ساعدها على تجاهله.. معيقا إدراكها لذروته القصوى.. والعائق موجود في مجال نظرها على نفس بقعتها.

السلام لم يدم طويلا، ما إن ظهر القمر ونوره مجددا كصاعقة من خلال ثغرة بين كتل الغيوم تفجرت كمية لا بأس بها من الدماء في وجهها فإذا كانت تلك القطرات القليلة لم تنفع فإن هذه الكمية التي تفجرت في وجهها ملطخة له عملت على إفاقتها من وهم الحقيقة الذي تمر به، الفضل يعود لسهم فضي اخترق كتف ذي العيون البنفسجية وجعله يهوي أرضا خائر القوى، أدار رأسه بصعوبة ليرى من هذا الدخيل الذي هاجم لحظاته الهادئة وهي الاخرى رفعت برأسها للأفق لنفس السبب ولمعرفة موضع المهاجمين، إلا أن الضباب المحيط بالمكان أفسد خطتها وأبقاها جاهلة لماهية الخطر من حولها..
الصاعقة الثانية والاخيرة كانت التي دفعت بها للتفكير في ضرورة إيجاد الخطوة القادمة، فاللحظة التي دققت فيها في ذاك السهم اكتشفت أنه لم يكن مجرد سهم عادي، بل كان يحمل شعارًا ما..

طائر أزرق ذو جناحين مزركشين بريش أبيض يعرف باسم طائر الجاي، تحيط به النيران من كل جانب.. كأنه يحلق وسط ألسنة اللهب دون أن يهاب شيئا، كأنه واثق كل الثقة بأن هذه النيران لن تؤذيه، أو لأنه يظن أنه قادر على تحمل آثارها..
أو كأنه ما يصدر تلك النيران، كما لو كان مصدقا لكونه عنقاء أسطورية، رافضا أن يرضى بحقيقته البسيطة،لأنه يؤمن أن ما يحمله بداخله أكبر بكثير من أن يحتجز تحت مسمى الحقيقة التي أردفها له أحدهم..
لكن الذي كان الضربة القاضية لها لم يكن بطائر الجاي، ولا بألسنة النار المحيطة به، بل كون هذا الشعار بحد ذاته مفتاحًا لباب السجن الذي تهرب منه، أصفادا تهابها وقفل زنزانة تخشى أن تعود إليها، مفتاح صندوق باندورا الذي إن فُتح فسيُقضى عليها.. شعار مملكتها التي تركتها هاربة منها، حيث ما عادت تشعر بالانتماء لها ولا لأي بقعة فيها حتى..

هذا الشعار الذي ذكرها بحقيقتها التي تركتها خلفها، بأصلها وهويتها التي تخلت عنهما من اللحظة التي عزمت فيها على المغادرة بلا رجعة، كونها أميرة المملكة المبجلة، الأميرة الموقرة ذات الشأن العظيم - أزاليا داكسين فخر مملكتها والوريثة الشرعية لعرشها..
لكنها الآن هربت، متخلية عن كل هذه الألقاب العظيمة، وتلك المكانة الشريفة بسبب حلم غريب غرس في نفسها الشجاعة الكافية وجعلها تندفع نحو العالم الخارجي تاركة الأمان لتعيش في قلب الخطر..
هذا الشعار الآن كان كافيا لتعلم أن حراس مملكتها وجدوا مكانها، وأنهم يسعون لإعادتها لبر الأمان، لكنهم بالنسبة لها الآن أكبر تهديد..

لذلك ناقوس الخطر في أعماقها أمرها بالهرب، أمر لا يحتمل التأجيل ولا التفكير ولا حتى مشاورة رغباتها..ما حدث توا ليس بالأمر الطبيعي، لكنها وجدت في الأمر فرصة لها كي تنجو بحياتها بعد أن أفاقها من الصدمة التي تسببت بارتعاش عظامها كافة، لذلك وقبل أن يتمكن أحد الجنود من الوصول إليها كان عليها الهرب!

كان عليها أن تسابق الرياح، بل أن تسابق نور القمر إن كانت تريد الابتعاد عن ذاك القصر الملعون، لذلك لا مجال لتضييع الوقت في الوقوف كذاك التمثال الذي كانت تحدق فيه توا، وفضلت استغلال هاجسها الذي استفاق بانفجار طعم الدماء في فمها في تحويله لطاقة تساعدها على الابتعاد عن هذا الوحش الذي انشل فجأة، لا يهمها كيف المهم أنه يصب لصالحها..

وكما حدد عقلها الذي بالكاد يعمل بطريقة صحيحة، أخذت تعدو لتسابق نور القمر نحو خط النهاية الذي تجهل مكانه، نحو بر الأمان الذي تجهل مواصفاته، تتبع فقط إحساسها المضطرب بقدر اضطرابها في أثناء جريها بلا وجهة معينة..
تشق الغابة كغزال هارب من نمر يريد افتراسه، بل كوحش يحاول أن يلحق بفريسته لينقض عليها ويغنم بها جرت كي تغنم بالأمان حتى وإن عنى هذا أنها ستعيش في عزلة أبدية..

لكن حتى في أثناء سعيها لاصطياد الأمان والسلام أخبرها حدسها بأن هناك ظلا ما يطاردها، هالة سوداء مظلمة تتقفى أثرها وسط هذه الأشجار التي تملأ الغابة، ورغم كون الغابة مظلمة لكن سواد تلك الهالة كان أكثر ظلما.. خالجها شعور بكونها طريدة رغم أنها وحش يحاول اصطياد ضحيته.. بل كغنيمة يطالب بها الكثيرون مقابل جائزة مالية ضخمة.. كأنها جوهرة ثمينة تتدحرج بين أحجار وطين هذه الغابة بلا هدف بعد أن ضاعت من مالكها الذي كان يبقيها في صندوق محكم الإغلاق ولأهميتها الكبيرة يحاول الجميع إعادتها بكل هذا الإصرار..

لكن بقدر ما كانوا مصرين على جعلها تعزف عن الهرب رغما عنها كانت هي الأخرى مصرة على التقدم دون الالتفات لما تركته خلفها أو الالتفات لمن يطاردها..
رغم أن كل الظروف التي كانت حولها لم تساعد في التخفيف من هاجسها، صفير رياح قوي، حفيف أوراق الشجر الذي يبدو كفحيح الأفاعي والذي يجعلها تشعر كأنها وسط حفرة مليئة بها وأنها ستهاجمها في أي لحظة، ونور القمر المتقطع الذي يظهر لحظة ويختفي للحظات يجعلها كشخص فاقد للبصر وكأن فقدانها للبصيرة الآن لم يكن كافيا.. كان على مسك الختام أن يشرفها بحضوره.. الصواعق! ضربت في لحظات مباغتة لتجعلها تتجمد مكانها وهي تضع أصابعها في أذنيها وتدعو أن لا تكون الهدف الجديد للصاعقة المقبلة، فكونها مطاردة من قبل الجنود، الذئاب وذاك الوحش الذي تجهل محله من الإعراب يكفيها..

على أرضية المقبرة، ظهر خيال أسود للجندي الذي رمى السهم من بين الضباب، أما ذاك الوحش الذي بالكاد يمسك بجزء جسده العلوي بعيدا عن الأرض، يقاوم خيانة قواه له كي لا يصبح طريحا على التراب قرب التمثال داخل المقبرة. رمى بيده نحو كتفه المصابة، أمسك بعصا السهم كي ينزعه منه..

- لا تحاول كثيرا، نصل السهم من الفضة وقد شبعته بالملح قبل أن أستعمله. قال ذاك الجندي بينما يتقدم إليه.

- أيها.. اللـ..بعين، أهذا أفضل ما عندك؟ أجاب صاحب العيون البنفسجية بين أنفاسه المتألمة ونظرة جانبية حاقدة في اتجاه من غرس له مثل هذا النوع من السهام في كتفه تعلو محياه.

- أبدا.. أفضل ما عندي سيتطلب قرونا من التخطيط والتحضير للإطاحة بشخص بمقامك.. السهم ما هو إلا لأحييك.. أيها الزعيم.

رسم ابتسامة جانبية عند إنهائه لكلامه ردها له المدعو بالزعيم على معنى "تبا لك" ما إن أخرج السهم أخيرا وتنفس الصعداء. لم يجد اللعين الذي حياه بحرارة مؤلمة لما وقف من مكانه، شعر بمغادرته في طرفة عين ما ان اختفى القمر مجددا من رقعة المقبرة.

****

بعد معاناة طويلة من الركض اللامتناهي، خارت قواها، أنهكت وما عادت قادرة على المواصلة، لذلك تهاونت، وتوقفت عن الركض مقنعة نفسها بأن العدو بعيد وأنها في أمان لفترة قصيرة على الأقل، اتخذت لنفسها متكئا على شجرة ذات جذع واسع، تسترجع أنفاسها بهدوء مستغلة أن إقناعها لعقلها بزوال الخطر مؤقتا ما يزال يعمل وتحاول التفكير في نفس الوقت في الخطوة التالية..
ما العمل؟

بعد أن هربت الآن وابتعدت كفاية عنهم، ما الوجهة التي عليها اتخاذها في غابة تجهل كل شيء عنها؟!
أين ستعيش بعد هذا؟ ومن أين ستحصل على لقمة عيشها؟
أفكار عصفت في عقلها مع وابل من أعاصير مهددة بالهلاك! أفكار جعلتها تشكك للمرة الألف في قرارها وفي طريقتها الفوضوية العشوائية في الترتيب لهذا الهروب الأسطوري الذي يبدو أنه سيفشل.. أو ربما هو فشل وانتهى الأمر.

وبالفعل تنبؤها لم يكن عبثا، لا أحد يعلم إن كانت تملك حاسة سادسة جعلتها تتنبؤ هذا أم أن تفكيرها المتواصل في الفشل جعل هذا الأخير ينقاد إليها رغما عنه، لكن في كلتا الحالتين، أحد الجنود يقترب من موضعها.. وقد اكتشفت هذا بفضل درعه الذي يحدث ضوضاء تسمع على بعد أمتار، وكردة فعل طبيعية - أثبتت لها أن إلغاء خطتها من تلقاء نفسها أمر يستحيل عليها فعله - بحثت عن مكان للاختباء..

لحسن حظها، عثرت على شجرة ضخمة مجوف جذعها جزئيا، والتي تتناسب مع حجمها بحيث تستطيع الاختباء فيها دون مشاكل.. انكمشت داخلها متشبثة بلحافها بكل ما تملك من قوة تدعو أن لا يتم اكتشاف مخبئها وبينما هي كذلك، لمحت شعاع نور رقيقا يتسلل من أعلى المكان الذي تختبئ فيه ليؤنسها في وحدتها المخيفة، رفعت رأسها لتتبع مصدره فوجدت أن هناك فتحة ما في نقطة التقاء تفرع الشجرة، أين ينقسم جذعها لنصفين قبل أن تتفرع الأغصان منهما..

عبر هذه الفتحة الصغيرة، تمكنت من رؤية القمر، كأنه نور يعلن عن نهاية نفق طويل مظلم، شعاع جميل يبشر بانتهاء عصر الظلمات والانتقال لعصر النور، الانتقال من عتمة ليلة شتاء باردة، وحيدة وطويلة إلى ليلة ربيع دافئة وغنية بالذكريات الحلوة..

شعرت برياح خفيفة تعبر عبر تلك الفتحة، مصدرة صفيرا رقيقا كأنه ترنيمة سحرية تناديها لألا تزيح عسليتيها عنها مهما كان ما يحدث من حولها، لذلك هي ودون إبداء ذرة اهتمام بالعالم الخارجي، تحدق في القمر كما لو تم تنويمها مغناطيسيا بينما تمرر أصابعها بعشوائية ودون وعي منها على الحلقات التي تراها على الشجرة ما أدى لتناثر بعض البتلات الملتهبة منها بطريقة سحرية كأنها بلورات ثلجية، لكنها لم تعرها انتباها فقد كانت مسحورة بتأثير القمر الذي كان يتموضع في منتصف الفتحة مشكلا شيئا أشبه بعين سحرية لامعة، كأنها رسالة من السماء لتعلمها بأنها مراقبة في كل خطوات كفاحها وأن ما تعيشه من صعاب معلوم وأن الاستماع لشكاويها وربما أمانيها أيضا متاح في أي وقت ومكان.. لذلك خطر على بالها أن تتمنى أمنية، أمنية دفينة صادقة، صادرة من أعمق نقطة من روحها، من نقطة لم تر النور منذ فترة طويلة قد تقدر بقرون.. أمنية تعكس مدى ألمها ورغبتها الملحة في التغيير..
لذلك بروح مثقلة بالآلام همست بأدنى نبرة يمكن أن تصدرها، كما لو كانت واثقة من أن أمنيتها هذه ستسمع ولو عن بعد مئات مليارات الأمتار..

- أتمنى.. أتمنى لو أن هذا الثقب الصغير يقود نحو عالم آخر.. عالم حيث الفراغ، حيث لا يمكن لأحد أن يزعجني أو يفسد علي حياتي.. تماما كهذا النور الموجود في نهاية هذه الشجرة، أتمنى أن أعثر على ذاك النور الذي بإمكانه أن يزيح ظلماتي الدفينة..

ما إن أنهت كلامها حضنت ركبتيها وأسندت رأسها إليهما مغمضة العينين في انتظار الفرج، في انتظار حياة أفضل، في انتظار بزوغ فجر جديد يأخذ بيدها نحو الطمأنينة والسلام بعيدا عن فوضى هذه الحياة التي تعيشها الآن..

لكنها لم تكن مدركة أن الفوضى كانت تقترب منها بينما كانت تحت تأثير سحر القمر، ذاك الجندي الذي هربت منه كان يقترب من الشجرة التي تختبئ فيها، كان جنديا مدرعا من رأسه لأخمص قدميه، ورغم أن درعه كان يصدر صوتا يسمح بمعرفة أنه يقترب منها أكثر، إلا أنها لم تملك أدنى فكرة عن ذلك كأنها انتقلت لعالم آخر حرفيا.. حتى باتخاذه متكئا على تلك الشجرة التي تختبئ فيها، لم تشعر بوجوده.. أزاح خوذته سامحا لخصلاته الليلية الداكنة بأن تعانق الهواء أخيرا، تخللت أصابعه خصلاته وأخذت تعيدها للخلف كحركة اعتاد عليها.. كان في بداية أربعيناته، بلحية خفيفة تزين وجهه مع رقعة تخفي خلفها عينه اليسرى..

- فرصة العمر هاه؟!..

نطق فجأة متسائلا كأنه بانتظار أن يجيبه أحد ما رغم أن لا أحد متاح في مجال نظره، حتى أميرته التي عليه إعادتها للقصر سالمة لم يبد أنه مدرك لوجودها خلفه تماما. لكن العجيب في الأمر أن خشخشة ظهرت من فوقه، مصدرها احتكاك أوراق الشجر شبه الميتة والتي تنتظر دورها في السقوط، لكن المصدر الفعلي كان تحركات ذاك الذئب الرمادي الضخم، لقد كان مختبئا هناك طوال هذا الوقت، فوق تلك الشجرة التي تختبئ فيها الأميرة أزاليا، ربما ينتظر اللحظة المناسبة للقيام بحركة ما، والتي يجهل ماهيتها.. لكن هذا الجندي الغريب حفزه أخيرا على التحرك، فقفز أرضا ووقف على بعد مترين من هذا الأخير وأخذ يقترب منه ببطء، أيا كان من سيشاهد هذا سيظن أن نزالا ضاريا على وشك الحدوث وطبعا سينتهي بمقتل أحدهما، لكن هذا لم يحدث! بل اكتفى الذئب بالجلوس أرضا بعد أن اقترب كفاية من الفارس كما لو كان بانتظار شيء ما منه.. الفارس كذلك لم يحرك ساكنا، لا سلاحه انشهر ولا إنذاره انطلق، في وضع يخالف العادة، الكائن الذي يتشوق للحوم الطازجة والدماء الساخنة لم يسع لنيلها، والآخر الذي قد يجني ثروة من فراء هذا الذئب والأمان الذي سيحل بموته أيضا لم يسع لهما..

أخذ الذئب يحدق في الجندي بغرابة، كأنه يطالب بإخباره عن هوية المخاطب الذي طرح عليه هذا السؤال، لكنه طبعا لن يحرمه من متعة تشغيل عقله الراكد ليفهم الأمر، بل زاد الوضع غموضا بكلامه..

- إن ضيعتها أيضا فلتنس وجودي..

تهديد من الدرجة الأولى بالتخلي، بالانسحاب من صفوف هذه العملية المجهولة التي جمعت ذئبا وجنديا، كائنان لا ينتميان لنفس الفصيلة حتى، ها هما يبدوان وكأنهما يعقدان صفقة فريدة من نوعها لا أحد غيرهما يفهم بنودها ولا شروطها ولا ظروف انعقادها حتى!

قبل أن يتمكن الذئب من إدلاء ردة فعل مناسبة، إختفى ذاك الجندي من المكان فجأة مخلفا خلفه بعض الضباب الأسود الكثيف، تاركا غموضًا أكثر حول الخطوة المقبلة..

بينما كانا يعقدان اجتماعهما الخاص، هي كذلك بدت في اجتماع مهم مع القمر، كانت البتلات لا تزال تتساقط عليها من العدم، وتتجمع من حولها بطريقة ساحرة، لكنها فجأة توقفت عن التساقط، تزامنا مع الهدوء الذي عم في الغابة ومع تواري القمر

خلف السحاب، وفي غمضة عين انتشر صوت نبضة قوية على أسماعها، لقد كانت واثقة كل الثقة أنها ليست نبضتها، لكنها تخللتها بقوة، وتركت فيها أثرا عميقا، جعلتها تشعر بأنها والنبضة شيء واحد..
نبضة أخرى، أقوى من سابقتها، والتي تتزامن مع نبضات تلك الهاربة الحالمة، تزامنا يجعلها تشكك في نفسها وتكاد تصدق أن هذه من إحدى نبضاتها القوية التي تنذر بحدوث شيء حاسم قريبا، لكنها ليست كذلك.. قد تكون تنذر بقدوم شيء ما، لكنها لا تنتمي لها.. إذا لماذا هذا الشعور الغريب بالاتحاد؟!

نبضة ثالثة، أقوى بكثير من سابقتيها، كأنها تناجيها لتتفاعل معها في استجابة لمحاولتها في التزامن معها، في محاولة لتنسيق رقصة ثنائية دقيقة لا مجال فيها للخطأ، رقصة حيث كل خطوة بخطوة، كل حركة بأخرى تقابلها، تعاكسها لكنها تطابقها في نفس الوقت، رقصة متزامنة من الأزل وإلى الأبد.. رقصة سرمدية متكاملة..

أخيرا قررت ترك انكماشها على نفسها جانبا وترك مجال لهذا التعاون المحتمل، ومع فعلها لذلك، أخذت البتلات ترتفع من مكان تموضعها وتشع أكثر، كأن إعصار صغيرًا يحملها على متنه ويراقصها بسلاسة تاركا الهاربة في مركزه تراقب بذهول ما يحدث من حولها.. لكن شيئا ما، صوتا ما، نداءا ما من دواخلها حثها على كسر هذا التفاعل اللطيف، لذلك مدت يدها دون تردد نحو إحدى البتلات لتمسك بها وما إن عانقت راحة يدها البتلة التي استهدفتها اضطربت حركة بقية البتلات وانتقلت من الهواء الذي كان ركيزتها لأن تتحرك بسرعة على جسدها.. مطبقة قوة عليها تحثها من الخروج من تلك الشجرة، رغم أنها كانت لا تزال خائفة من الظهور لكنها لم تملك القرار هذه المرة فتلك البتلات كانت أقوى منها..

دفعتها بقوة من جوف الشجرة لتخرج وتتحسس الأرض بقدميها الحافيتين - بعد أن فقدت فردتي حذائها في أثناء ركضها المتواصل - تتحسس الأوراق الميتة والأغصان الرقيقة التي سقطت من أصلها لضعفها أمام رياح الشمال الجبارة، بعد أن تبرأت منها أشجارها لأنها فقدت رونقها وتحولت لأوراق مجعدة ميتة لا فائدة..

مع كل مسافة معتبرة تقطعها كانت البتلات تصدر نبضة، لكن تركيزها الآن يقل، قوة كل نبضة أقل من سابقتها، لكنها واصلت في دفعها، رغم أنفها جعلتها تسير دون توقف، رغم ارهاقها وتعبها هي مجبرة على مسايرتها لأنها لا تملك خيارا حتى، لذلك ما كان أمامها إلا أن تدعو أن نهاية هذا الطريق الذي تقودها إليه تحمل نهاية سعيدة، أو غير مؤذية على الأقل..

نهاية هذا الطريق قد بانت أخيرا! والدليل كان توقف البتلات عن الحركة واختفاء نبضاتها معها، انسدلت البتلات برقة من على أزاليا وانقادت نحو شيء آخر، تبعتها أزاليا بعينيها، متشوقة لمعرفة السبب الذي جعلها أخيرا تنزاح عنها فوجدتها تتموضع بسلاسة فوق سطح البحيرة التي وصلت إليها، مشكلة مسارًا مستقيما ينتهي باحتضانه لحلقة عجيبة..
ما إن تموضعت البتلات كليا اشتعلت أول بتلتين من ذاك المسار، ملتهبة بقوة وكأن الذي يحملها كان زيت مصابيح لا ماءً طبيعيا.. بسبب كل هذه الغرائب، توقد الفضول في عقل الأميرة، رغبتها في معرفة السر وراء هذه البتلات أدت بها للاندفاع خلفها! كأنها اشتاقت لكونها تحيط بها، اعتادت على فكرة أنهما واحد، جزء لا يتجزأ، لذلك هرعت نحو البحيرة، وما إن عبرت أول بتلتين التهبت بقية البتلات دفعة واحدة، كأنها ترحب بها بحرارة..

وكلما مرت على بتلة قامت هذه الأخيرة بترك موضعها بعد أن تنطفئ لتعود للالتفاف حول أزاليا، غير مدركة لحقيقة أنها إن واصلت على هذه المنوال فستغرق، لكنها ليست مدركة، ولن تدرك شيئا لأنها ليست في وعيها، كأن البتلات أذهبت تفكيرها..

ما زاد الوضع سوءا هو ظهور القمر من جديد، ظهوره بحيث يتعامد مع البحيرة تحديدا في نقطة الحلقة التي شكلتها البتلات، بأعجوبة التهبت نيران تلك البتلات أكثر متحدة مع نور القمر الذي أحاط محيطها من كل جهة، مركز الحلقة أيضا تفاعل مع آخر عنصر، وأخذ يلف المياه من حوله كزوبعة، قوتها قادرة على الإطاحة بأقوى السفن..

الأغرب أن ذاك الذئب الرمادي ظهر فجأة على مركز الزوبعة، واقفا كأن ما يقف عليه صرح زجاجي، إلا أنه لم يطل البقاء كثيرا، أحاط به غبار فضي ليتحول فجأة لشاب في نهاية عشريناته، ذي شعر رمادي كثيف، وقف ساكنا للحظات يراقبها بهدوء ثم قفز بإرادته لداخل الزوبعة، كأنه واثق من نجاته إن عبرها هكذا بإرادته، لكن عزيزتنا لم يرمش لها جفن، لم تنتبه لوجود الذئب حتى، بل واصلت الانقياد نحو المركز محاطة بالبتلات العجيبة كما لو كانت على وشك تقليده رغم أن وعيها لم ينتبه له، لكن يبدو أن لاوعيها قد سجل كل خطوة وعلى استعداد لتقليده غير آبه بحقيقة أنه ينقاد نحو الموت...

******

- 5 -

هناك على ضفة البحيرة كان واقفا ينظر لسطحها الذي ينعكس منه نور القمر، يراقب ترنح بتلات الزهور فوق مياهها، فقط صامت داخل غضب هادئ. ذاك اللعين هل قال تحية؟ ذاك السهم كان هدفه تعطيله بخطوة مع التيار إذن لا غير. اعتصر عصى السهم في قبضته يكبح بها غيظه، يكبح بها رغبته في إضرام النار في تدمير المكان وإبادته. لقد كان قريبا جدا هو حتى أحس بدفئها بعد قرون من الفشل في إتمام الحركة، كلما وصل إليها تختفي من أمام ناظريه على نفس الصورة البشعة والآن لما نجح في جعل الأمور على ما يرام تم أخذها لمكان أبعد، للعمق.

رفع نظره للقمر، كانت السماء صافية فوق البحيرة لذا حصل على تأمل طويل لنوره وشكله، من بعدها ما إن رتب أفكاره ودرس محيطه رفع شفاهه للجانب في ابتسامة خبيثة، ابتسامة نصر سيظفر به رغم كل شيء.

- يبدو انك نسيت اني عشت مع الاصلية في زمن اللعنات والتعويذات.. زمن حيث كانت الأساطير تحفر على الجدران.. انتظرني لأعلمك واحدة منها.

انحنى يلتقط بتلة وصلت لحافة الضفة قربه، تحسسها بين أنامله ثم أغلق عليها داخل قبضته واختفى من الموقع في دوامة ضبابية بنفسجية تبعثرت في الهواء في لحظات. بعد ذلك اكتسى اللون الفضي للقمر باللون البنفسجي وكأن خسوفا من نوع مريب أصابه.

****

- 6 -

استفاق وعيها في ظروف لا تشبه ظروف غيابه عن العمل إطلاقا، مكان دافئ يحميها من برد الليل القاتل، فراش ناعم يقيها من الإصابات المفاجئة التي تعرضت لها في الغابة، رائحة جميلة مهدئة تختلف كل الاختلاف عن رائحة التربة المختلطة بعدة روائح أخرى غريبة سببت لها الاختناق سابقا، وضع مختلف تماما عما كانت تشعر به..
ليس الضياع وليس الاختناق ولا الرغبة بالهرب بحثا عن مكان يُشعرها بالانتماء، بل تريد البقاء فيه مطولًا غير آبهة بماهيته ولا بهوية مالكه..
إنه السلام الذي كانت تبحث عنه، بعيدًا عن فوضى العالم الخارجي الذي جعل عالمها الداخلي في فوضى أكبر..
تزامنا مع فتحها لعينيها كي تتفقد محيطها الجديد سمعت صرير الباب، لذا التفتت نحوه بفضول مترقبة ظهور الشخص الذي يقف من خلفه.
كان عجوزا ذا بشرة شاحبة ارتسمت عليها تجاعيد توضح الآثار التي تركتها الحياة عليه ولحية خفيفة بيضاء مع عيون رمادية تحمل نظرة دافئة حانية، تقدم بهدوء في الغرفة حاملا صينية بها إبريق شاي مع فنجانين وعلبة عسل.
عدلت نفسها لتجلس بينما تراقبه يتقدم، في حين أنه توقف لبرهة عندما رآها تتحرك وقال بنبرة مازحة:
- أوه استفقت أخيرًا، كنت أظنك في سبات..
نظرت نحوه باستغراب، غير قادرة على تذكر اللحظة التي تقربت فيها من هذا العجوز كي يمزح معها بهذا الشكل، لكن كلامه الذي يلي مزاحه جعلها تتناسى توبيخه لتجاوزه حدوده.
- قمت بتحضير شاي الخزامى تحسبا لاستيقاظك، لذلك المنزل يعبق بهذه الرائحة الجميلة، ألا يبدو كأنك في نزهة ربيعية.. تفترشين بساطا حريريا وسط حقول الخزامى العطرة وتحدقين نحو السماء الصافية دون هموم ولا مشاكل تستنزف طاقتك؟
كأن الرائحة من مسحوق سحري يمحي الهموم من عقلك..
تحدث بنبرة هادئة حانية كما لو كان يحاول جعلها تتخيل نفسها تعيش ذاك الجو الجميل، وبعيون باسمة عكست صفاء السماء الربيعية - رغم لونهما الرمادي - وذاك ما كانت بحاجة له تماما، هواء يخلو من القلق ويحمل نسبة كبيرة من الاسترخاء، كما لو كان قادرًا على قراءة أفكارها وتحقيقها بدلا عنها..

بطريقة ما، ورغم كونها تجهل هوية هذا العجوز، لكنه يشعرها بالارتياح، وهذا المكان يزيح عن صدرها الاختناق الذي لطالما أزعجها، لذا لا ضرر من البقاء فيه للوقت الحالي..

- دعيني أسكب لك البعض قبل أن يبرد ويفقد رونقه
تقدم نحو طاولة الغرفة ليضع الصينية عليها ويسكب الشاي بأريحية، ما إن فرغ من ذلك أضاف لأحد الكوبين ملعقتين من العسل وقدمه لها بكل ثقة من أن ما أعده سيناسب ذوقها كما لو أنه معتاد على تقديم الشاي لها يوميا، ملعقتا عسل بالضبط هو المقدار الذي يسمح لها بالاستمتاع بالشاي كما يجب..
ارتشفت القليل منه لتتأكد من أن طعمه جيد كرائحته، لكنه لم يكن جيدا وحسب.. بل كان آسرا!
طعم لم يسبق لها أن تخيلت تذوقه قط، وكأن براعم التذوق لديها أزهرت حقولا من الخزامى قوية الرائحة والمفعول..
نزهة وسط حقول الخزامى؟ بل هي تشعر كما لو أنها تحلق فوق السحاب، كأنها جزء من تلك السماء النقية الصافية التي تخلو من الفوضى..
في نقطة الانعدام، حيث ليس عليها القلق بشأن مشكل ما، وليس عليها بذل جهد لتحقيق شيء ما، وليس عليها الاحتراس من أي طفيلي قد يفكر في استغلال جهودها لمصالحه..

- زهور الخزامى ترمز للنقاء، الحظ، الإخلاص والهدوء.. قال فجأة من بين رشفاته المتقطعة للشاي، قررت اختيار هذه الزهرة لصنع الشاي دون غيرها، لعلها تجلب أمورًا جيدةً لحياتك.. لكن الآن وبدل التفكير في ما قد يحدث، لنتحدث عما يحدث، كيف هو مذاقه؟ أيناسب ذوقك؟

همهمت وهي تهز رأسها بالإيجاب بينما تحتضن الكوب متحسسة دفئه الجميل بيديها المغلفتين ببعض الضمادات، عند رؤيتها لهذه الأخيرة تذكرت أخيرًا أن عليها التساؤل حول كيفية وصولها لهذا المكان، لذا رفعت نظرها نحو العجوز الذي يجلس على كرسي الطاولة يراقبها بصمت بينما يحتسي شايه هو الآخر، وما إن لمح نظراتها تحدث كما لو أنه فهم ما كانت على وشك قوله..

- لمحتك تغرقين من بعيد في بركة وسط الغابة، أنقذت حياتك لذا عليك أن تكوني شاكرة لذلك.. لكن ما الذي كانت تفعله شابة مثلك في الغابة في ذاك الوقت من اليوم؟

ارتبكت من سؤاله، طبعا ستفعل وهو قد فصلها فجأة عن العالم الجميل الذي تعيشه بفضل الشاي معيدا إياها لواقع أليم، ولأنها أيضا لا ترغب بالتحدث عما جرى في حياتها لذلك قررت الالتزام بخطة مفاجئة..
- لا أذكر..
قالت مزيحة ببصرها بعيدا عنه، محاولة إخفاء ارتباكها وهو طبعا لاحظ الأمر لذلك خاطبها ممازحا ثانية لتلطيف الأجواء:
- أيعقل أنك خرجت ليلا لقطف بعض الزهور؟..
لم تبد ردة فعل على مزاحه واكتفت برشفة أخرى من الشاي في حين قام العجوز بطرح سؤال آخر عليها لكن بنبرة جادة هذه المرة:
- حسنا إذا ماذا عن اسمك؟ ومنزلك؟
هزت رأسها نافية بينما تعلمه أنها لا تذكر هذا أيضا، طبعا بعد أن ابتلعت شايها بصعوبة من الاختناق الذي شعرت به فجأة ما إن ذكر أمر منزلها..
- حسنا.. لا بأس.. يمكنك البقاء هنا ريثما تتذكرين، لكن علينا إيجاد اسم لك.. لايمكنني مخاطبتك دون أن يكون لك اسم ما أليس كذلك؟!
ابتسم في نهاية حديثه وأخذ يفكر بعمق، وما إن عثر على فكرة جعلها ترى النور بسرعة:
- ما رأيك بأزاليا؟..
اقتراحه جعل الدم يتوقف عن الجري في أوعيتها.. بل جعلها تنسى كيف تتنفس حتى.. من أين له بمعرفة اسمها؟ أهي ضربة حظ؟ أم أنه تعرف عليها ما إن رآها؟ لم تعثر على إجابة لأي من هذا، لكنها كانت متأكدة من شيء وحيد..
ألا وهو ارتباكها..

****

- 7 -

-

شعرت بالدماء تتجمد في عروقها، رئتاها عجزتا عن التنفس وعقلها غير قادر على استيعاب الأمر، هي تدعي فقدان الذاكرة لتتناسى قصتها وتحاول محو آلامها، وهو من العدم يذكر اسمها، عنوان كتاب حياتها المأساوي الذي تتفادى فتحه، لكنه أتى كزلزال ضربه مباشرة ليسقط من أعلى الرفوف ويُفتح على أكثر صفحة حزنا..
رغم صدمتها، كان هناك شيء أهم عليها الاهتمام لأمره، وهو مواصلة تمثيلها حتى وإن احتمل الأمر كونه قد كُشف، فعلى العرض أن يستمر مهما كانت الظروف.

- لماذا أزاليا؟
استفسرت عن خياره الذي صدمها بنبرة هادئة عكس الضوضاء التي تتضارب في عقلها، آملة ألا يكون قد اكتشف هويتها وحقيقتها، وكانت تدعو أن لا يشي بها فتضطر للعودة لجحيم الحياة الذي هربت منه، بقيت تنتظر أن يجيبها وهي تتمنى أن يتجاوز التحقيق في سؤالها، في المقابل نظر نحوها بابتسامة خفيفة وقال:
- عندما رأيتك تغرقين، كانت تحيط بك زهور الأزالية ، ومع انعكاس ضوء القمر عليها بدت كجمر ملتهب من حولك.. هذا ما جعلني انتبه لوجودك رغم ضعف بصري في ظلام الليل إزاء سني المتقدم هذا..

هزت أزاليا رأسها ببطء كعلامة على فهمها للدافع الذي جعله يختار هذا الاسم، لكنها لم تفهم مصدر تلك الزهور من حولها، كيف ستفعل وهي لا تذكر كيف انتهى بها الأمر غارقة حتى، لذا كانت على وشك أن تسأله لكنه نطق قبل أن تتمكن من صياغة السؤال بعقلها حتى..

- زهور الأزالية لا تتواجد في مكان قريب من البركة، لذلك خمنت أنك قطفتها..
تخمينه كان منطقيا حسب الوضع الذي وصل فيه لإنقاذها في قصته، لكنه كان بعيدا كل البعد عن المنطق بالنسبة لها، لم تمتلك أي ذكرى في عقلها لاقتطاف الزهور، كيف ستفعل وقد كانت هاربة لأن حياتها تعتمد على ذلك؟! ليس وكأن مطارديها سيتنظرون انتهائها من استمتاعها بقطف الزهور حتى ينهوا مطاردتها!

هي تتذكر وجود بتلات كانت تظهر وتختفي من حين لآخر في أثناء هربها، وهي تحمل نفس المواصفات الذي ذكرها هذا العجوز، كما أنها تذكرت أن هذه البتلات هي ما دفعها للوصول للبحيرة في المقام الأول، لذا ربما هي ما دفعها للغرق فيها أيضا.. في النهاية فقدانها للذاكرة ليس أمرها تُزيفه.. لم تتذكر شيئا حول اقتحامها للبحيرة، وعلى ما يبدو لن تفعل في وقت قريب لأنها كانت غير واعية بما يحدث حولها في أثناء ذلك.. كما أنها لم ترغب بتذكر ما في قصة حياتها لذلك قررت إحراق بعض صفحاتها كي تختفي تلك الذكريات هي الأخرى رغما عنها..

- أتعلمين؟.. تلك الزهرة تناسب وضعك..
نبس فجأة بنبرة منخفضة تشابه في تأثيرها ريحا باردة اقتحمت فجأة تلك الغرفة الدافئة لتصفعها بقوة..

- أي وضع؟
سألته لتتحرى قصده بعد مقاطعته لجلسة تفكيرها المطولة والعقيمة التي بدت أنها لن تنتهي إلا بشق الأنفس، والتي أنهاها في أقل من دقيقة بجملته الغامضة، التي ألهبت شرارة جلسة تفكير أخرى لخلايا عقلها،..
ما الذي يعنيه بهذا؟! ما الذي يعرفه عن وضعها؟ ولأي مدى يعرف؟!
عندما أخبرها عن طريقة اختياره لذاك الاسم ارتاحت لأنه لم يذكر شيئا عن هويتها ولا الوضع الذي تعيشه، لكنها الآن تسمعه يذكر وضعها وأن الزهرة تشبه وضعها..

الفضول يقتلها والقلق يأكل كل شبر منها والخوف من العودة لجحيمها رغما عنها يُحرقها لمجرد تخيل الأمر يحدث..

رمقها بدفء متحسسا قلقها، مستشعرا ألمها، لكن لم يستطع مواساتها بطريقة مباشرة لأن ذلك قد يجعلها في وضع حرج، لذلك قرر استعمال طريقة غير مباشرة، والبدء في سرد قصة أسطورية كما لو كان يشاهد أحداثها أمامه..
- يقال في الأساطير القديمة.. عندما تصبح الحياة كريمة، تمنح البعض فرص حياة عديدة فتُبعث أرواحهم في رحلة جديدة..
وأول شيء تقوم به هذه الأرواح هو زرع بذرة، على قبر حياتهم السابقة لتبقى عبرة، البذرة تصير زهرة، بعد فترة تضحي الزهرة بادية وهي زهرة الأزالية
توقف عن الحديث، ارتشف القليل من شايه ثم نهض من مكانه ليغادر الغرفة دون أن يقفل الباب من ورائه تاركا إياها متسائلة عن الرابط الذي يقصده، لأنها لم تستطع العثور على شيء مشترك بين وضعها والقصة التي يتحدث عنها، وفوق هذا غادر بكل وقاحة تاركا إياها محتارة من كلامه الغامض الذي لا يمد للمنطق بصلة..

بينما كانت تشتمه لوقاحته معها عاد حاملًا أصيص زهور تحمل بتلات تشبه التي رأتها في الغابة، بتلات بلون الجمر الذي لا ينفك إلا أن يحترق بصفة دائمة..
أخذت تتأملها بشرود كما فعلت في الغابة، تركت مكانها دون وعي منها لتقف وتأخذ الأصيص منه وكأنه ملك لها في الأساس ثم اقتربت من نافذة الغرفة لتفتحها سامحة للرياح المتجمدة بالدخول تاركة الأصيص فوق إطار النافذة بحيث يتكامل مع صورة الغروب التي تجعل السماء تحترق كما لو كانت في اشتياق دائم لأحدهم..

- تناسب المشهد أليس كذلك؟
سألها بعد أن انتهت من وضعها هناك وأخذت تتأملها، لم تجبه واكتفت بهز رأسها فقط مواصلة تأملها لذاك المنظر الذي يشعرها بالانتماء، تلك القطعة الفنية من الطبيعة التي تشعرها لأول مرة أنها ضمن الإطار، التي تبعث في الأعاصير التي تضرب بعنف داخلها هدوءً لم يسبق أن حل عليها، سلام نفسي تعيشه لأول مرة في حياتها، دون ضغوط، دون مشاكل ودون قيود...
استنشقت ذاك الهواء البارد وشعرت به يثلج صدرها، كما لو كان دلو ماء سُكب على نار طالما أحرقت دواخلها..
- لهذا السبب بالذات أخبرتك أنها تشبهك..
ارتفع حاجباها من تصريحه المفاجئ وسط جلسة نقاهتها التي عقدتها فجأة والتفتت نحوه إذ كان يقف خلفها يتأمل تصرفاتها وتغيرات هالتها، يستشعر معها ما تستكشفه في كل ثانية، وقد استشعر توا رغبتها المُلحة في فهم قصده لذلك تحدث أخيرا دون ألغاز فاكا كل الغموض الذي عقده بداخل عقلها..
- كما أخبرتك سابقا زهور الأزالية حسب الأسطورة تظهر على قبور من يتم بعث روحهم لتحصل على حياة جديدة، أنت نجوت من الغرق وكانت تحيط بك زهور الأزالية التي قطفتها من الغابة، الامر يشبه حصولك على فرصة حياة أخرى.. لهذا تشبهين تلك الزهرة..
هزت أزاليا رأسها مهمهمة كدلالة على فهمها أخيرا لمقصده وعادت تلتفت نحو النافذة لتعود لتأملها المريح للأعصاب، لكن يبدو أن العجوز الواقف خلفها يحمل مزيدا من الكلام بجعبته، لكن عكس النبرة الأولى التي كانت منشرحة ومفككة للإبهام الذي صنعه كانت هذه مبهمة أكثر ومنخفضة أكثر..
- بتلاتها تبدو في التهاب واحتراق دائمين أليس كذلك؟!
هذه المرة لم ينتظر إجابة منها بل واصل بنبرة أكثر انخفاضا وعمقا كما لو كان يحمل دلو آلام مركزة من بئر من مركز الأرض..
- إنها تماما مثلك، تحترقين دوما بمفردك ولا تطلبين يد العون مهما كان ذاك الاحتراق مؤلما، وتكتفين في النهاية بإغراق نفسك لعل هذا يطفئ ما بداخلك من نيران ملتهبة.. وإن لاحظتِ فإن اسم الزهرة يحمل كلمة الأزل فيه ما يعني أن احتراقها لم يبدأ من زمن قريب بل بقي يحرقها ببطء شيئا فشيئا وسيبقى كذلك إن لم يتول أحد إخماده..
كلامه كان مشبعا بالألم، ألم استشعره من تأملها ومراقبة تغيرات هالتها، فقط من تنفسها أمامها لا غير..

هي في المقابل كانت فعلا تحترق، تتلوى ألما دون أن يلاحظ أحد عليها ذلك، دون أن يخفف عنها أحد ذلك ودون أن يضع أحد ذاك بالحسبان.. كانت مكلفة بمواصلة العيش فقط دون الالتفات لأي شيء يزعجها ورميه جانبا كي لا يعيق طريق تقدمها نحو القمة.. لكن بدل أن تنزاح تلك المشاكل جانبا كانت تتكدس واحدة تلو الأخرى داخلها مشكلة هذه الفوضى التي تؤرقها حتى الآن..

لكن لأول مرة، لأول مرة لاحظ أحدهم كفاحها، لاحظ معاناتها، ألمها وتحدث عنه بدلا عنها حتى!

شعرت بأن جزءا كبيرا من ألمها انزاح توا لمجرد سماعها له يصف آلامها! شيء لم تكن هي قادرة على فعله حتى!

أجل.. لم تكن تعي ما يحدث داخلها أصلا، حتى إن وعت به فلن تكون قادرة على تفسيره ووصفه بذات الطريقة التي وصفها هو توا، كأنه قادر على الرؤية من خلالها! كأنها مجرد هيكل شفاف يتجول مبينا الحريق الضخم الذي يأكله داخليا شيئا فشيئا، أم أنه يملك بصرا خارقا للعادة كي يتمكن من فهم ما يحدث داخلها في حين أن المئات الذين كانوا في حياتها من قبل لم يفعلوا؟!

كل هذا التفكير جعل غمامة دموع تتشكل على بلورتيها العسليتين، لذلك لم تجرؤ على التفكير في الالتفات نحوه لتتحدث كما تعلمت من الآداب من صغرها، وذلك لكي تحمي كبرياءها وكرامتها من التحطم إن رآها تبكي، وبدل البقاء صامتة كمجرم يرفض الاعتراف بجرمه قررت أخيرا أن تتكلم مزيحة عنها كل الشبهات رافضة أن يكون على حق في وصف ألمها فهذا شيء ليست معتادة عليه ولم تعلم كيف تتعامل معه لذا لم يكن أمامها سوى صده بكل بساطة.. قالت بنبرة متحشرجة تحاول التماسك كي لا ينفضح أمرها أمامه..

- ألم أخبرك سابقًا أني فاقدة للذاكرة؟! كيف سأتذكر إن كان ما تقوله صحيحا أم لا؟!

رسم ابتسامة صغيرة بعد أن فهم ما تحاول فعله، التهرب.. لذلك قرر إغلاق القضية احتراما لرغبتها رغم أنه يعلم أن ألما كهذا لن ينسى حتى وإن فقد المرء كل ذكريات حياته..

- اه نسيت.. لا بد أن الخرف بدأ ينال من عقلي العجوز..

قال مازحا لتلطيف الجو وهو يتوجه نحو الطاولة، رفع صينية الشاي وتوجه نحو الباب ليخرج ملقيا على مسامعها جملة أخيرة..

- العشاء سينضج بعد ساعة تقريبا، فلتصعدي للطابق الموالي حينها..

****

- 8 -

ارتدت السماء لونا أزرق داكنا يعكس مدى شساعة الكون، لتسمح للهلال بإظهار جماله مع صحبته من النجوم التي تشع بقوة رغم احتلالها لأماكن مختلفة متباعدة في سماء هذا العالم.
لم يكسر شيء هدوء الليل ما عدا صوت الأمواج المتضاربة حول التلة التي تحمل تلك القلعة التي اختارها ذاك العجوز لتكون منزلا له رغم خطورة موقعها..
كانت عبارة عن برجين يعانقان الدرج ويربطانه بالمبنى الرئيسي ذي الطابق الأرضي والطوابق الثلاثة فوقه، أولهما يحمل نوافذ زجاجية جميلة، الثاني له شرفات مزينة بمختلف أنواع النباتات المتسلقة والثالث طابق العلية وسطح محاط بسياج فضي في أعلى نقطة منه..
أحد البرجين يُطل بنوافذه المجردة من العوازل على البحر، في حين أن الثاني يطل على التلة المغطاة بالثلوج الكثيفة..
.
أزاليا قررت ترك غرفتها في الطابق الأول والتوجه نحو الطابق الأرضي بعد أن شعرت بالاختناق من التواجد المستمر في تلك الغرفة الميتة.. لذلك لم تجد شيئا أفضل من الاقتراب من مصدر هواءها النقي الذي تعرفت عليه مؤخرا، ذاك العجوز الخرف الغريب الذي لا تعرف عنه شيئا سوى أنه أنقذها من الغرق وحقيقة أنه مهووس نباتات بصريح العبارة.. بالإضافة لكونه يشعرها بالراحة لمجرد تواجده قربها دون أن تطلب منه أن يمدها ببعض العون للعثور على سلامها الداخلي..
بينما هي في طريقها إليه، توقفت للحظات بعد أن جذبها لون السماء الذي يبعث بالراحة في نفسها متسللة بين اضطراباتها لتفكها وتخلصها منها لكنها سرعان ماتحركت من المكان عندما شعرت بالبرد يلسعها إثر الرياح التي جلبها الجو الشتوي المتجمد الذي يفرض نفسه على أرض المكان..
- عليه أن يغلق هذه النوافذ إن كان يرغب في إكرام ضيفه..
قالت وهي تلف عينيها منزعجة من تفكيره في ابقائها مفتوحة، لكنها فكرت في الاحتفاظ بهذا التعليق لنفسها كي لا تكون وقحة في التعامل معه في حين أنه أنقذها من الغرق وساعدها في إيجاد ملجأ تأوي إليه في أثناء فترة هربها من العالم..

وصلت للطابق الأرضي، وكانت هذه أول مرة تزوره فيها، إذ كانت تتجول طوال فترة إقامتها بين الطابق الأول حيث غرفتها والثاني حيث غرفة الطعام..
كان عبارة عن بهو ضخم من أوله لآخره، وبدا مخصصا لتعيش فيه النباتات دون غيرها، الجدار على يمناها مغلف بالنباتات المتسلقة، تتبعت النباتات ببصرها إلى أن وقع على طاولة عليها أصص لأزهار ذات أشكال وألوان متنوعة تتموضع في الزاوية بين الجدار الأيمن والجدار المقابل لها، على طول هذا الأخير تواجدت أصص معلقة عليه وأخرى مثبتة عليه بإحكام كأنها جزء من الأحجار التي بني الجدار بها، أما في الجهة اليسرى فقد لمحت نافورة ضخمة في زاوية الجدار تحمل بداخلها زهورا عائمة على سطحها..
هذه الأخيرة شدت انتباه أزاليا فانطلقت نحوها متفادية الأشجار الصغيرة المزروعة في أحواض تراب مثبتة في الأرض وسط البلاط الفاخر الذي يغطي البهو، ومتجاهلة كل الزهور الجميلة التي تزين هذا المكان مركزة نظرها نحو العائمة منها كما لو كانت تملك موعدا محددا معها يجب عليها أن لا تتأخر عنه..
استقرت قرب النافورة محدقة بشرود في تلك الزهور التي تنجرف مع تيار المياه المتدفقة، غير منتبهة أن العجوز جالس خلفها على كرسيه الهزاز يلتمس قبسا من مدفأته لعلها تطرد الصقيع الذي يأكل أطرافه..
- بينكما معرفة سابقة؟
صوته الذي تسلل عبر طبلتي أذنيها لعقلها فجأة جعلاها تستفيق من شرودها وتلتفت نحوه مرتبكة، كما لو كانت تفكر بصوت عالٍ فارتبكت خشية أن يسمع أفكارها التي تخفيها عن العالم الغريب الذي لطالما رفض أن تقوم أفكارها بخطوات - ولو كانت صغيرة - على أرضه..
- عذرًا؟

التمست المعذرة كي يعيد كلامه لأن عقلها ضيع فرصة فتح أبوابه لاستقبالها من أول مرة بسبب شروده، فما كان على الآخر إلا تحقيق مرادها..
- سألت إن كانت بينكما معرفة سابقة.. حسب ما رأيت، لقد ألغيتِ وجود كل شيء في هذه الغرفة لتراقبيها، بما في ذلك هذا العجوز الذي يزعجك في أثناء شرودك، معك كل الحق في تجاهل مزعج مثلي، لكن لا تتجاهلي بقية النباتات، ستشعر بالغيرة..
ابتسمت ساخرة من حديثه الفارغ، الذي يختلقه في محاولات منه لتلطيف الجو بينهما لأنها بدت جادة للغاية، كعادتها..
- لست واثقة..
أجابته باختصار وهي تحاول صياغة أفكارها قبل أن تُسهب في الحديث لإخماد فضوله بإجابة محدودة قبل أن يبدأ في استكشاف طبقة أخرى من نفسيتها فينكشف أمرها وتقف عاجزة كسابق مرة عندما فضح كونها في احتراق دائم..
- أشعر أن هناك رابطًا بيننا، تبدو كشيء لمحته في حلم ما.. أو قد يكون جزءً عابرا من ذكريات حياتي التي فقدتها..
حاولت أن تختصر إجابتها قدر الإمكان وتجعلها وافية في آن واحد، آملة أن تأكيدها على جزء فقدانها للذاكرة سيثنيه عن لعب دوره في القفز على أوتار الكلام لعزف قطعة تفتح جروحها التي تتجاهل نزيفها على أمل أن يتوقف إن لم تعره اهتماما..
لكنه طبعا لن يضيع فرصة اللعب ما دام دوره متاحا، وما دام يملك خطة جيدة أيضا لصنع معزوفة أليمة تلامس مشاعرها فلن يتردد في ذلك..
- تشتركان في الانجراف؟
- ماذا؟!
سألت متفاجئة لأنها لم تتوقع أن يحاول اقتحام عالمها حتى بعد تلميحها، لكنها تيقنت من أنه ليس من ذاك النوع الذي يفهم الحديث بالألغاز عندما يكون موجها نحوه..
- تشعرين أنك تنجرفين في تيار هذه الحياة الذي لا يرحم تماما كما تنجرف هذه الزنابق بتيار النافورة القوي، أليس كذلك؟ تشعرين أنك لا تملكين أدنى نقطة سيطرة على المسار الذي تتخذينه بل يتم سحبك نحوه؟
نطق بكل ثقة وهو يصنع تواصلا بصريا معها، تلك التي تشعر أن قلاع دفاعها مخترقة بقذائف من منجنيق قوي للمرة الثانية فتشكلت سحب دموع أخرى على عسليتيها لعلها تساهم في إفساد أرض المعركة على العدو، لكنها لم تعد إلا بالسوء على مالكتها التي ترى أن قلاعها على وشك التحطم..
هو يجعلها تعيش التناقض في آن واحد، يشعرها بالراحة لمجرد حضوره في المكان، وفي نفس الوقت يجعلها تشعر بأن هناك هجوما قويا يشن ضدها ليفجر ما تبقى من نفسيتها بغتة..
تريد الاستماع لما يتوصل إليه حولها لكن حديثه يؤذيها في نفس الوقت،.. هي شخص لم يعرف معنى مشاركة ما يؤذيه للتخفيف من وقعه، شخص لم يتعلم كيف يبادر بإخراج الشحنات السلبية التي تجعل الصواعق تضرب بداخله، لذلك ما إن بدأ هذا العجوز في التصرف كشخص قريب منها وأخذ يدلي بدلوه لإخراج ما تخفيه في أعماقها شعرت بقلبها يعتصر..

- إن كنت تراني أشبه الزنابق المنجرفة، كان عليك أن تناديني تيمنا بها، ألا تظن ذلك؟
قالت في محاولة منها لجعل الحديث ينجرف عن مساره، لكنه لسوء حظها ليس من النوع الذي ينجرف مع التيار، بل هو صخرة مثبتة بشموخ في منتصف نهر جارف ترغمه بحضورها على جعل تياره ينجرف كما شاءت له أن يكون..
- أنت لا تنكرين هذا.. أصحيح ما قلته؟
- كيف لي أن أنكر ما لا أستطيع تذكره حتى..
قالت وهي تكسر ذاك التواصل البصري أخيرًا متهربة من نظراته التي تقرأ كل تحركاتها وتترجمها دون أي خطأ وإن كان صغيرًا، هو فهم طبعا أنها تتهرب مجددا، لكنه لم يتفهم هذه المرة وقرر جعلها تواجه الأمر دون تهرب أو تجاهل لكن في نفس الوقت دون أن تختنق من محاصرته لها فجأة..
- هل تريدين أن أساعدك في التذكر؟ أو ربما ترغبين في العودة لمنزلك وملئ نفسك من جديد، لا بد أن العيش بلا هوية يجعلك تشعرين بالفراغ، كما لو كنت قد فقدت المغزى من حياتك..
'أخطأ مرتين وأصاب أربع مرات..'

كانت أول جملة ظهرت في عقلها بعد أن انتهى من كلامه، كأنها كانت تعد كل كلماته لتُحَدد لأيّ مدى يمكن أن تصل له دقته في فضحها..
هي لا تريد منه أن يجعلها تتذكر، ولا تريد العودة من حيث أتت، لكنه كان مصيبا في كونها تعيش بلا هوية، تتذوق من شلالات الفراغ التي تتدفق داخلها بعد أن فقدت المغزى الرئيسي من حياتها..
هي تهيم في هذا العالم بلا هدف، تبحث باستمرار عن شيء يلهي عقلها ويمنعه من التفكير في مأساة حياتها التي تزيدها ألما لذلك تدعي النسيان، تكذب على العالم وتنتظر أن يصدق عقلها هذه الكذبة أيضا رغم أنه من اخترعها.. نعم، هي يائسة لهذه الدرجة.. وهي على علم بذلك..

- أنا فاقدة لذكرياتي التي حدثت قبل الغرق، أما التي بعده، عندما بحثت فيها لم أجد فيها أي ذكرى عن كوني طلبت منك المساعدة لأتذكر أو لأعود من حيث أتيت..
أعادت بناء حصنها بمتانة أكبر، بصده بحزم غير سامحة له بالتغلغل في آلامها أكثر لكنها لمحت عليه إحباطا فجأة، فشعرت بالسوء بعد أن عاملته بنوع من الوقاحة غير الضرورية، لذلك أرادت إصلاح الوضع مغيرة الموضوع بذكاء لما يهواه ذاك العجوز، لزهوره العزيزة...
- لكن أيضا عثرت فيها على حلم ظهرت فيه هذه الزنابق
بعد أن تذكرت أنها رأت هذه الزنابق في أحد أحلامها، قررت استغلالها لمواصلة الحديث معه، وهو طبعا لن يضيع فرصة الاستماع لها بعد أن قررت التحدث أخيرًا..
- في صحراء غريبة، كنت التف حول نفسي في محاولة مني للعثور على شيء يوضح موضعي، شيء يعلمني بمكاني، لكن لم أجد شيئا.. شعرت أني وسط الفراغ، في مكان عقيم لا يصلح للحياة، حيث سينتهي كل شيء بالنسبة لي.. لكن فجأة سمعت صوت مياه جارية، خريرا تطرب له الأسماع، لذلك تقفيته، وجدت نهرا، على حافته رأيت هذه الزهور، تتبع التيار جاهلة بما يخفيه لها في نهايته، كان يبدو حلما عاديا لوهلة، لكنه تحول لشيء غريب فجأة، في ذاك النهر تشكلت دوامة صغيرة، تجمعت حولها الزنابق، ليظهر ذئب رمادي ضخم من العدم بغتة وهو يركض آتيا من الضفة المقابلة للنهر نحو تلك الدوامة ليقفز نحوها ويختفي، ولسبب ما أردت أن ألحق به، لكن ما إن كدت أقع في النهر استفقت وانتهى الحلم..
ختمت كلامها وهي تمرر يدها في مياه النافورة عكس التيار، كما لو كانت تقنع نفسها أنها برحلتها هذه تكون قد كسرت تيار الحياة التي اختيرت لها دون أن تُوافق على تفاصيلها، وانطلقت في صنع تيارها الخاص..
أما العجوز فقد كان يصغي بصمت، يبحث عن التفاصيل في حديثها، لمواصلة المحادثة دون تركها متوقفة في نقطة مبهمة..
- حلمك هذا أكبر دليل على أنك هائمة في صحاري الضياع.. لكن بدل التقدم للعثور على طريق، تبقين دون حراك في انتظار أدنى إشارة من العالم لتقفيها غير آبهة بماهيتها وما قد يصدر إثر ركضك خلفها..
تترددين حول البقاء ضائعة وسط الحياة أو العودة للعيش وسط الفراغ، لذلك أنت بحاجة لدليل يقودك للخروج من ضياعك لكنك ترفضين الإعتراف بذلك..
كلامه شكل غصة في دواخلها، غصة جعلتها تفقد القدرة على التنفس لوهلة، جعلتها تفلت زهرة الزنبق التي حملتها في أثناء حديثه لتعود هذه الأخيرة لتنجرف مع التيار كسابق عهدها، هي لا تدري إن كان كلامه صحيحا وينطبق عليها، لا تعلم إن كان تفسيره يحمل بعضا من الواقعية التي تصف حالتها، لكنه حديث فتح جراحها التي ترفض تضميدها، آملة أن تلتئم من تلقاء نفسها.. لكن ما يفعله الآن أشبه بتمرير الملح عليها، أو إعادة فتحها إثر إصابة جديدة..

كل هذه المشاعر المتضاربة داخلها لم تجد سبيلا للخروج، لم تعلم كيف تتعامل مع كل هذا، لذا لم تجد أمامها إلا الغضب منه لأنه وضعها في موقف كهذا، لذلك التفتت إليه بعدما كانت تتحاشى النظر إليه لاضطرابها، رمقته بحدة وبدت عليها رغبتها الملحة في رميه بأحد الأصص أو بإغراق رأسه المغطى بالشيب في النافورة أو ربما دفعه نحو المدفأة ليحترق فيها كما يقوم بحرق دواخلها، لكن هذا ينافي الأخلاقيات التي نشأت عليها، الغضب والصراخ ليس من شيم آنسة محترمة مثلها، لذلك قلبت عينيها متنهدة وغادرت المكان بخطوات صاخبة تعبر عن غضبها بدلا عنها..
****

- 9 -

رؤية أحدهم من بعيد في قمة غضبه المجنون لأمر مخيف، رغم أن المسافة بينك وبينه كافية لأجل سلامتك الجسدية لكنها ليست كذلك من أجل السلامة النفسية.. مع ذلك أولندر العجوز الذي أنقذ المدعوة أزاليا واستضافها في بيته استثناء للأمر.

فكر أن يمسك بها ويعيدها لصوابها بتهدئة أعصابها المثارة لكنه تراجع فقد رأى في الأمر قلة احترام لها متناسيا أنها لم تعر لقضية الاحترام اهتمامًا، فهي بكل وقاحة وجرأة تحطم أي شيء تراه أو يعترض طريقها بداخل تلك الغرفة التي قدمها لها كي تستريح إلى أن تسترجع ذكرياتها. نوبة الغضب التي تجتاحها لا مثيل لها.. كعاصفة تضرب بالمكان دون سابق إنذار.

بدأ الأمر بعد صعودها لغرفتها من شبه شجار دار بينهما في الطابق النباتي، حطم معنوياتها فقررت رد الدين بتحطيم مادياته.. ومن أهم تلك الماديات اصيص زهرة الأزالية الذي قدمه لها سابقا كان أول شيء تعرض للهجوم، لاحظه أولندر مرميًا وسط الغرفة، نصف الزهرة مدفونة تحت التراب والاصيص صار شظايا مبعثرة في محيط قبر الزهرة الذي اصطنعته لها أزاليا.

"تحياتنا يا نور المملكة"..
"دمت لنا يا أملنا الوحيد"..
"شرفتنا أيتها الأميرة المبجلة"..
"ملكتنا المستقبلية، فخرنا اللامتناهي"..
"نجمة مملكتنا اللامعة"..

جمل كانت أزاليا ترددها بكل حقد ساخر كلما حطمت شيئا ما.. تبعثر آخر وترمي غيره، أعماقها لم تنفتح بل تفجرت كبركان ثائر.. لهيب بالداخل كان يحرقها ولم تعد قادرة على كبته.. فقدت السيطرة عليه بالتالي تحرر نحو الخارج باثا الخراب والفوضى ليعلن نفسه، أولندر فهم الأمر ولهذا قرر الأنتظار بعض الشيء لأنه من الغباء أن تغامر في بحر أمواجه متضاربة.

- بدوا كأنهم لا يقوون على العيش من دوني، جعلوني أعيش على أعلى قمة من العالم، جعلوني أشعر أني أحلق بالقرب من الشمس.. كأني فعلا نجمة لامعة ترشدهم نحو مستقبل باهر، لكن في لحظة.. غمضة عين.. انقلب كل شيء. أميرتهم المبجلة تحولت للمنبوذة التي تحمل جرما لا يغتفر، التي لا يمكن بل يستحيل عليها أن تحكم المملكة بعد يومها ذاك.. الملاعين، حولوني من نجم ساطع لعبد خاضع.. أخذوا مني الهدف الذي يدفع بي لأعيش وتركوني أدور وأجول في حلقات مفرغة، عاجزة عن التحرك، ضائعة، هالكة.. ملعونة.

صرخت بكلماتها وهي تضرب على المرآة تواصل تحطيمها أكثر من اللازم، متجاهلة الجراح التي تحصل عليها بسبب ذلك وغير مستوعبة للدماء التي تتسرب منها والتي تتقاطر على الأرض وعلى قطع المرآة.
فاقدة السيطرة على نفسها بالكامل، لم يكن من الصعب عدم معرفة ذلك. أولندر قرر أن يتدخل مضيفا كلماته كإجابة على كلماتها..

- ربما كل ما هنالك أنهم أساؤوا التقدير، لم يكن موضعك كملكة من الأصل، فأحيانا يوجد بعض النجوم الكاذبة تسطع لبعض الوقت وتنطفئ لذا كيف سيعتمدون عليك لترشديهم نحو المستقبل.. أنت لم تَثبتي في مكانك، لم تُثبتي جدارتك، لا بد أنك خيبت ظنهم، فلو لم يكن الأمر كذلك لكانت رؤوسهم معلقة للعبرة، أليس كذلك؟

حل الصمت،..
تلك الشظايا تحت يديها النازفتين باتت تملك لها نظيرًا داخل نفسية أزاليا، في الأخير أولندر لم يكن استثناءً.. تأثر بالتحطيم فحطم بدوره، هي كانت تحطم الجماد وهو حطم الأنفاس والنبضات معيدا إياها لصوابها، ما حدث يشبه لحد بعيد مقولة: عالج الشر بالشر.

كلماته انغرست في عقلها كالسهم، أهذا يعني أنه خطأها هي؟ هي من أوصل نفسها لهذه الحالة؟ هم.. تلك الأيادي القذرة اللعينة ما هي إلا ردة فعل ظهرت بسببها هي؟.. أكانت تعيش خدعة من صنعها طوال هذا الوقت إذن! أهي من أطفأت كل الأنوار في عالمها وأغرقت نفسها فيه غير سامحة لبصيص أمل أن يخرجها منه؟ أهي من يجذب نفسها نحو ذاك القاع الموحل.. بل تجذب نفسها لداخل ثقب أسود لا مجال للتنفس فيه حتى؟

كل هذه الأفكار، سبحت في عقلها وهي ترمق إصيص زهور الأزاليا الذي حطمته بشرود ثم نهضت من الأرض وقد كان غضبها يحطم ويطحن المرآة، يداها كانتا باردتين ترتعشان، متورمتان تتألمان.. تقطران بالدم..

أدارت أزاليا برأسها ناحية الباب لتنظر إلى أولندر الواقف خلفها، احترم الحدود ولم يعبرها لكنه بكل جرأة اخترق دواخل أزاليا فجرها.. قلبها رأسا على عقب ثم أخمدها.. ببساطة تامة.

- أجل محق.. لو كنت نجمتهم حقا لقطَعت رؤوسهم، لكن أقسم.. أقسم أني سأكون نجمتك وأقطع رأسك.

هكذا قررت أن تنتقم، أن تنفذ نصيحته عليه، أن يكون أول من يذوق من شخصيتها الجديدة بعد الحطام.. حدثته بصوت هادئ جدا، حَاني جدا.. كأنها ليست هي من كان يصرخ بغضب منذ لحظات. عيناها اغرورقت بالدموع وعيناه هو الآخر امتلأت بالدموع.. قالت ستكون نجمته! آه فقط لو تعلم.. سيخبرها أن تقطع جسده أجزاءً أيضا لا داعي للتواضع.

ابتسم برقة وسط دموعه، لم يتمالك نفسه في ألا يسرح البعض منها خارج حدود جفونه.. مثير للشفقة.
استدار لينزل للطابق النباتي، يحضر لها شاي زهرة جميلة.. زهرة دافئة كشكر على كلماتها.. كان قد فكر في واحدة مسبقا في أثناء نزوله، لا يوجد أفضل من زهرة الأقحوان لمثل هذا الموقف أين تم قول الحقيقة، أين تم بث السعادة داخل أحدهم وإلهاب التفاؤل في أمانيه الشبه ميتة. جعلت من روحه تزهر بكلماتها بطريقة غريبة، كزهرة ذابلة على وشك أن تصبح سمادا لكن السماء أمطرت لأنه لم يحن الوقت بعد، لتخبرها أنها ما تزال تملك حياةً طويلةً أمامها لتراها..

أحيت فيه أملا كاذبا، سرابا سينساب من مرآه قريبا، لكنه راض بمجرد هذه الكذبة، سيقنع بالجزء القليل منه طالما يصنع له سعادة زائفة يخدع بها عقله ريثما يحين أجله ويلقى حتفه..

عاد نحو الأعلى إلى غرفتها مع صينية الشاي الذي حضره لحضرتها، والمفاجئة، لم تكن هناك.. تنهد باستسلام، تقدم لداخل الغرفة انحنى يرفع الطاولة ووضع فوقها الصينية.
التراب المنثور على الأرض شد انتباهه فقرر تعديل الأمر، خرج يجلب اصيصًا جديدًا وعاد للغرفة ليصلح الفوضى..
بعدما وضع كمية من التراب داخل الأصيص ظهرت الزهرة، للأسف لا يمكن إعادة زرعها لأن أزاليا وغضبها قررا إعدامها بتمزيقها لقطع لذا ما كان عليه سوى وضع الأجزاء ورمي بقية التراب عليهم، بتعبير آخر، دفنها في مكان لائق...

رفع الأصيص على سطح الطاولة، تأمله لبعض الوقت راميا بنظراته نحو صينية الشاي بين الفينة والأخرى.. ثم قرر أن يقدم له الشاي.. أزاليا البشرية ليست هنا لاحتسائه إذا أزاليا الزهرة ستعوض الأمر.. لا بأس. أمسك بالابريق وسكب محتواه في الأصيص ليسقي التراب.. يسقي الزهرة المدفونة بالداخل.. ثم همس..

- لا بأس، الزمن سيكون كافيا لإعَادتك نحو القمة، كل ما عليك فعله هو الصبر.

في أثناء سكبه الشاي داخل الأصيص، نور القمر دخل للغرفة من خلال النافذة.. رفع أولندر نظره إليه فلمح شيئا يكتب على زجاج النافذة بحروف لغة لا تنتمي لهذا المكان ولا لهذا الزمان.. لكنه يعرفها.. يفهمها ويجيدها.

"وقعت شجرة ياسمين في حب الشمس، لكن لشدة خجلها لم تكن تتفتح صباحا لذلك قررت التفتح ليلا والنظر لأشعتها التي تنعكس على القمر لتنيره فصارت من حينها تسمى.. زهرة ملكة الليل."

قرأ الكلمات بهدوء من ثم رسم ابتسامة جانبية وهو يعيد الإبريق للصينية، التف حوله يتفحص المكان يبحث عن غايته، هناك في الركن خلف الباب.. ثغرة صغيرة نمت فيها بعض سيقان من شجرة ملكة الليل كانت تلامس نور القمر بالتالي زهورها تفتحت.
اقترب أولندر ناحيتها، انحنى لمستواها يتحسس الزهور.. استغرب كيف لم ينتبه لرائحتها سابقا رغم أنها قوية.. تصيب بالصداع.

أحاط بكفه السيقان الهزيلة أغلق عليهم قبضته ثم بحركة عنيفة استأصلهم من منبتهم، وقف باعتدال ينظر للسيقان التي بين يديه ثم استدار ناحية نافذة الغرفة فرأى تلك الكتابة تمحى، فهم ما حصل.. هذه النبتة وعطرها هما ما سببا هيجان أعصاب أزاليا لحد أن تفقد صوابها..
نظر لحطام المرآة.. واستنتج من فوره.. لا بد أن مثل هذه الجملة ظهرت على المرآة أول مرة لما لامس نور القمر سطحها، لا بد أن أزاليا استفزتها كلمة ملكة الليل، لا بد أنها اعتبرت في الأمر إهانة لأنها تريد التحليق نحو الشمس..

تنهد بعمق ورفع يده الحاملة لسيقان تلك الزهرة.. قربها لوجهه من ثم نفث عليها فتناثرت في غبار بنفسجي طار بعيدا للأمام بعض الشيء ثم اختفى. أولندر يعرف مثل هذه الخدعة ويعرف من يمكنه صنعها.. هذا النوع من السحر والتلاعب له فيه خبرة طويلة.. طويلة جدا.
رسم ابتسامة جانبية وهو يتوجه للطاولة كي يحمل منها ذاك الإصيص ويضعه في الركن يخفي به تلك الثغرة التي في الجدار، بعدها همَّ بمغادرة الغرفة.

بحث عن ازاليا في أرجاء البيت لكنها لم تكن هناك، علم أنها تسللت للخارج بالتالي ارتدى معطفه وحمل عصاه المتكئة قرب باب البيت والتي تبلغ طوله وتنتهي بأفعوين تلتفان حول بعضهما وخرج في عملية البحث عنها.. عن ازاليا.

تمتم في أثناء إغلاقه الباب وهو ينظر للقمر..

- يبدو أن أحدهم يريد أن يتسلل مستعملا نوعا معينا من السحر.. متناسيا أني أجيد كل أنواع السحر.. فأنا السحر ذاته.

رفع قلنسوة معطفه وراح يمشي باتجاه الغابة، من هناك جلب أزاليا لذا لا بد أنها إلى هناك عادت.. فلتُصنع البداية بينهما مجددا.. لا بأس هو معتاد بالبدايات المتكررة، لكن هذه المرة..فلتكن مع السحر.

****

- 10 -

في رحلة البحث عن مفقودَته، جال الغابة كلها في عز الليل، وسط برد الشتاء الذي تتجمد له الأطراف، متقفيا آثار أقدامها المطبوعة على الطين، على أمل العثور عليها بسرعة قبل أن يشتد البرد أكثر، لكن هيهات.. آثار أقدامها تملأ الغابة كلها، وكأنها كانت تحوم في دوائر لا متناهية..

وقف محتارا للحظات، يفكر بعمق باحثا عن طريقة تدله على مكان وجودها، لكن بدل أن يكون الشخص الذي يعثر عليها، ظهرت هي فجأة لتعثر عليه، إلا أنها لم تبد طبيعية، كانت تحيط بها البتلات الملتهبة من كل جانب، ومقلتاها كانتا تلتهبان بنفس القدر الذي تلتهب به تلك البتلات، كانت تسير بطريقة لا تشبهها في شيء، مشيتها الشامخة المتزنة التي تسمح لها بحمل عشرة كتب فوق رأسها بتوازن لم تعد موجودة، بل صارت تمشي بعشوائية، ترتطم بالأشجار وتتعثر بالصخور، كما لو أنها تحت تأثير سحر غريب يتحكم بالأرواح، سحر أسود يذهب عقل الضحية التي سُلّط عليها، أو كما لو أن شيئا غريبا استحوذ على جسدها، ليحتل كل ركن منه دون أن تملك هي القدرة على السيطرة..

راقب تحركها بقلق وأخذ يحاول لفت انتباهها لوجوده كي يعيدها لمكانه الآمن، لكنها لم تستفق من غيبوبتها، بل سقطت أرضا مغشيا عليها.. هرع نحوها ليعلم ما أصابها، نبضها متسارع، بشرتها شاحبة، أطرافها متجمدة واستجابتها لنداءاته المتواصلة منعدمة، حتى وتيرة تنفسها سريعة على غير العادة..

لم يعلم ما خطبها، رغم أن شكوكا ترسخت في ذهنه، لكنه لم يكن واثقا منها، لذلك قرر أن يتصرف بتهور ويعالج أعراضها الغريبة التي تجعلها تتصرف مثل كلب مسعور، لذلك أخرج جعبة صغيرة من جيبه فتحها ليخرج منها بودرة زرقاء اللون، قربها من أنفها وجعلها تستنشقها وسط تنفسها السريع ذاك منتظرا أن يحصل على نتائج فورية، لكن ترقبه خاب.. لذلك قرر أن يحملها على ظهره ويعيدها لجحره الدافئ بعيدا عن هذا الشتاء القارص الذي يزيد حالتها سوءا، حتى وان كان يعني هذا معاناته من آلام الظهر لكنه سيضحي بنفسه في سبيل سلامتها..

بينما كان يعذب عظامه، شعر بأنفاسها الدافئة تستقر، تنتقل من القتال بجنون لفترة السلام الذي يجهل إن كان مؤقتا أم لا..

ورغم ارتياحه لشعوره بتحسنها إلا أنه لم يرد أن يبطئ وتيرة سيره، فقط وفقط إذا ما حدث شيء سيء..

بينما كان يسير بها، شعر بتحركاتها مع بعض من أنفاسها تتخلل أذنه اليسرى..

- أتعلم؟

نطقت كاسرة الصمت الذي كان يحيط بهما، بنبرة خافتة تحمل حزنا بين طياتها، ولأن هذه النبرة لم تكن تعرف طريقا للخروج من أعماقها، لم يُرِد أن يَرُدها خائبة لذلك همهم مستفسرا عن بقية كلامها..

- الزهرة في جيبك.. تبدو حزينة

علقت على الزهرة الزرقاء التي رأتها متموضعة في جيب سترته العلوي، كما لو أنها قد استشعرت حزنها الدفين وأرادت أن تعبر عنه بدلا منها بعد أن أشفقت عليها لأنها لا تستطيع التحدث وإفراج حزنها..

مثلما يحدث معها هي الأخرى، تحمل في طياتها حزنا دفينا لا يعلم عنه أحد سواها، ولا تمتلك القدرة عن الفضفضة عن لأحد، لهذا السبب تعاطفت مع الزهرة وأرادت أن تعبر عن حزنها بدلا عنها..

- هي كذلك.. يقال أنها في الأصل لم تكن تحمل هذا اللون الحزين..

صرح بما يعرفه عن تلك الزهرة، كعادته.. فعندما يتعلق الحوار بإحدى صغاره فهو لن يتوقف عن التفاخر بالحديث عنها..

- حقا؟! لماذا؟

استفسرت عن هذه الميزة التي تختلف بها هذه الزهرة عن رفيقاتها، منتظرة سماع السبب الذي جعلها كذلك وطبعا العجوز لم يخذلها..

- هل ترغبين بسماع قصتها؟

همهمت موافقة على اقتراحه وبقيت تنتظر سماع القصة بفارغ الصبر فأخذ يسرد بأسلوبه الهادئ إحدى أساطيره الجميلة..

- في غابر الزمان، التقت آنسة بمعشوقها من الفرسان، وقرب أحد الأنهار ذهبا يتجولان، في أثناء ذلك وجد زهورا وردية باهية، انحنى لقطفها كي يمنحها لرفيقته الغالية، لكنه كان فوق هضبة عالية ودرعه كانت أثقل من أن تبقيه في هذه الحياة الفانية.. وقع وانجرف مع المياه الجارية، جارفا معه سعادة تلك اللحظة الزاهية، لكن قبل أن يقع في الهاوية رمى تلك الزهور الباهية، لتلتقطها محبوبته الناجية، هاتفا لها بأن لا تنساه وتبقيه في قلبها كذكرى أبدية باهرة.. لكنها قضت نحبها باكية، وتلك الزهور انتقلت من بهاءها للتلون بالأزرق تعبيرا عن حدادها، والذنب الذي لا ينفك إلا أن يزيد من عذابها..
توقف عن السرد خاتما إياه بنبرة حزينة ناقلا النهاية المأساوية لقصة الحب الحزينة تلك، ومفسرا سبب حزن تلك الزهرة بأسطورته..
- في النهاية حتى الزهرة تجيد التعبير عن حزنها..
نبست بصوت لا يكاد يسمع لكن ولقربها الشديد من أذنيه، تمكن من سماع ما تفادت إسماعه إياه، كي لا تتم محاصرتها مع أحزانها وهي في وضع لا يسمح لها بالهروب، وما زادها حسرة هو معرفة أن الزهرة التي رثت لها ترثي حزنها لغيرها وتجعل العالم أجمع يعلم بحزنها في حين أنها العاجزة عن التحدث عن آلامها أو حتى التلميح لها..

- جميعنا نملك القدرة على التعبير عن أحزاننا، لكننا لا نملك القرار..
قال بابتسامة متكلفة، كأنه يجبر نفسه على تجرع مرار الحياة لكنه يبتسم كي لا تسخر منه هذه الأخيرة أكثر مما قد فعلت سابقا، لكن أزاليا كانت عاجزة عن لمحها.. لذلك واصلت في التحدث بحزن جاعلة منه يتجاهل أحزانه ليستمع لما تقوله.
- أتمنى لو كنت مثل هذه الزهرة.. سيعلم العالم حينها عن مدى حزني، سيعلمون عن القهر الذي أعيشه والذي لا يدركون وجوده فيزيدون من تركيزه عليه.. لا بأس إن لم أتلق المواساة.. كل ما يهم أنهم لن يزيدوني ألما إن لمحوا جزءا من تعاستي هكذا..

تحشرج صوتها في النهاية، وتجمعت غمامة حزينة على مقلتيها مشوشة بصرها، لكنها حاولت كعادتها أن لا تسمح لها بالتمرد عليها، إلا أنها بالكاد تعي ما تتحدث عنه، بالكاد تعلم أين هي وما يحدث من حولها، هي أشبه بمن تعاطى مخدرا قويا لينسى ما يحدث من حوله، لكن ما يحدث معها له تأثير معاكس كليا.. كل ما دفنته في الأعماق عاد ليطفو رغما عنها للسطح.. لذا وجدت نفسها غارقة في أحزانها غير قادرة على السباحة لبر السلام الداخلي..

- المشكل لا يتمحور حول تقرير الإفصاح بالحزن أم لا، بل يتمحور حول إيجاد أذن واعية، حول إيجاد حضن دافئ مستعد لاحتواء شخص محطم لا يقوى على جمع شتات نفسه وإيجاد روح تتحسس مدى الألم الذي يجول بين ذاك الحطام.. طوال كل هذه السنوات من العزلة، طوال كل هذه الفترة الموحشة لم أجد شخصا على استعداد تام للاستماع لفضفضتي، فكيف سأقرر أن أبوح بما يؤرقني إن كنت سأتحدث للجدران؟! كيف سأجعل العالم يفهم أني فقدت نفسي؟ أني لم أعد أشعر بلذة الحياة.. أني شيء بين الحياة والموت لا يملك تعريفا محددا.. كيف سيفهمون أني فقدت شغف العيش والبحث عن شيء يسحق المحاربة للحصول عليه؟! كيف قد يفهم أي كائن أني في أمس الحاجة لمواساة تخبرني أن العالم لم ينته؟ أني أستطيع البدء من جديد ومحاولة الوقوف ثانية إن تعثرت.. كيف سيفهم أي بشر أني أشتاق لطعم الحياة في عروقي؟ أو كيف أن النهوض من القاع وتسلق كل هذه الحفرة للوصول لسفح الجبل الذي سقطت منه أصعب بكثير من مجرد التحدث عنه بهذه البساطة.. لن يفهم أحد مدى يأسي، لا أحد سيقدر الخيبة التي تعتصرني دوما، أن تسعى طوال حياتك للوصول لهدف واحد ووحيد، أن تتقدم نحوه بكل ما لديك من قوة متجاهلا كل شيء آخر قد يظهر في طريقك في سبيل الوصول لهدفك ثم في النهاية يأتي أحدهم ليعصف في حياتك ويقلبها رأسا على عقب كما لو كان يسحب البساط الطائر من تحت قدميك لتهوي من طريقك للقمة لأسفل سافلين في حين أنه يستمتع بأخذ ما كان لك من البداية.. لا أحد.. لا أحد سيفهم..

تحدثت دون انقطاع، تكلمت بصوت يحمل بحة ثقيلة وبكاءا على وشك الانهمار كأمطار شتوية قوية، أفرجت عن جزء بسيط من معاناتها التي كانت تحتضنها لسنوات لعل الضيق الذي يخنقها يرتخي قليلا، لكن عندما رأت أن في الأمر مضيعة لجهدها ونتائج عكسية قررت الصمت..

قررت أن الصمت أفضل حل في موقف كهذا، لكن لدموعها قرار آخر، فقد كانت تنهمر بقوة على وجنتيها لتستقر في النهاية على كتف ذاك العجوز مبللة ذاك الجزء من سترته، ولأن دموعها الآن في وضعية تمرد قررت إحداها أن تتمرد وتستقر على تلك الزهرة التي في جيب سترته، ما جعل لونها الأزرق يزداد حلكة دون أن يلاحظ أي منهما ذلك..

في المقابل، شعر العجوز بألمها، شعر باختناقها وعذابها، لكنه لم يجد طريقة لمواساة أحزانها، لم يعلم أي كلمة يختارها ليرقع بها الفجوة الضخمة التي خلفها الزمان في نفس هذه الشابة التي تعاني بمفردها في عالم مليء بقساة القلوب، لذلك قرر الصمت هو الآخر آملا أن الزمن سيترك لجراحها وقتا لتشفى..

عاد الصمت المدقع ليطغى على المكان، وهذه المرة أتى مصاحبا لضيف خاص بعد أن أتعبته وحدته وسط هذا المكان الموحش.. بلورات ثلجية أخذت تتناثر في المكان..

تحت إنارة القمر الخافتة، وسط الغابة الموحشة، كانا في طريقهما للمنزل يحتضنان بلورات الثلج التي أتت لتحط على ما يحترق داخل كل منهما لعلها تكون بلسما لإصاباتهما..

***

- 11 -

أعادها لجحره الآمن أخيرا، ليضعها برفق على سريرها ليتركها تتعافى من حالتها الغريبة في جو ذي هدوء قاتل لا يشبه جو تركها للمكان في شيء، تغيير جذري..
بعد أن كانت تتفجر كبركان قرر أن يثور فجأة، ها هي الآن كخشب مستنزف صار رمادا.. لا قدرة لها على إحداث حرائق أخرى..
بينما كانت تستلقي بهدوء، كان هو يلف الغرفة - بعد أن قام بترتيبها والتخلص من الفوضى التي فيها - يمسك بيدها حامل بخور وينشره في كل أركانها، كما لو كان يحاول تثبيتها هناك بدل تلك التي سببت له الصداع قبل لحاقه بأزاليا في الغابة.. ملكة الليل المتعجرفة التي جعلتها تفقد صوابها..
بتلات زرقاء من تلك التي كانت في جيبها في الغابة تأكلها نيران ملتهبة بغية تحقيق هدف سامي ألا وهو علاج هذه الأميرة النائمة من سخطها.. ورغم أن ما قامت بتحطيمه من ماديات غير قابل للإصلاح، إلا أنه
حرص على تعميم هذا البخور في أرجائها لإصلاح ما تحطم من نفسيتها..
عندما رأى أن في بخوره كفاية لها، أخمد البتلات، تاركة واحدة أو ربما اثنتين لتكملا عملهما لما تبقى من الليل، بعد أن ترك حامل البخور فوق المنضدة قرب سريرها..
حدق فيها لبضع ثواني، يلاحظ وتيرة تنفسها المنتظمة، التي توحي بوجود سلام مزيف، سلام لا يعرف أحد متى سيتم كسره..
قرر أخيرا أن يترك المكان، أن يغادر ويتركها مع سلامها المزيف لتستمتع به دون أن يفسده بوجوده بقربها، لكن ما إن خطا خارج غرفتها نبست بجملة جعلته يتوقف مكانه ممسكا بإطار الباب، كأنها ربطته بأغلال وهمية بمجرد نطقها لتلك الجملة فكانت تمنعه من الابتعاد عنها أكثر..
- أنا فقط.. لا أريد أن أُنسى..
كلماتها اليائسة، نبرتها المستغيثة، وهالتها الساكنة توضح مدى استماتتها في ترك أثر خلفها، في رغبتها الملحة في أن تكون شيئا يتذكره محيطها دوما، شيئا يخصصون له من أيامهم لحظات يذكرون فيه إنجازاتها التي سعت لتحقيقها مذ نعومة أظفارها، أو أن تكون المثال الحي الذي لا يموت في السيرة الحسنة، أن تكون خير قائدة وخير مسيرة، أن تقودهم نحو قمة العالم فيتذكرها العالم بهذه الصورة الجميلة، لكن حلمها في الوصول إلى كل هذا تلاشى، وكأنها كانت تتسلق نحو القمة على درج من زجاج يتحطم من أدنى تدخل خارجي..
في المقابل، كانت هذه أمنية دفينة لأولندر العجوز، وكسنه الكبير، كبرت هذه الأمنية في دواخله، إلى أن احتلت جزءا كبيرا منه لدرجة أنها صارت تطالبه بتحقيقها بدل الوقوف مكتوف اليدين في انتظار أن تتحقق من تلقاء نفسها، كبرت لدرجة أنه استطاع فهم مقصدها دون أن تشرح له شيئا أكثر مما قالته..
هو الآخر كان يتمنى لو يتم تذكره، يرجو من أعماق قلبه أن لا يتم نسيانه وسط كل الذكريات التي يحملها هذا العالم الشاسع، لكن عكسها التي أرادت أن يتذكرها العالم، هو كان ينتظر أن يتذكره شخص واحد ووحيد، فريد ليس له مثيل، شخص يعتز به ويشتاق إليه، لكن في الأمر استحالة.. فقد الأمل في تحقق أمنيته عندما رأى أن شخصه الفريد يملك شخصا فريدا غيره يرغب بتذكره.. هذه الحقيقة جعلته يشعر بالدمار، كما أرادت أزاليا أن يتذكرها العالم، كان ذاك الشخص بمثابة العالم لأولندر، لو حصل عليه كان ليعوضه عن العالم وكل ما فيه، لكنه لم يقترب منه ولو بمقدار ذرة، لذلك شعر بأن عالمه الداخلي يتهاوى..

- في أحد أحلامي الوردية النادرة، عندما كنت لا أزال حبيسة القصر.. ظهرت لتخبرني أنك بانتظاري، مادا يدك نحوي بثغر باسم وعيون حانية، ظهرت وسط كوابيسي الدموية لتكون ما يحولها لأحلام وردية جميلة بلون الخوخ الحلو الذي ينسيك مرارة كل ما تذوقته قبله.. لكنك تلاشيت فجأة قبل أن أصل إليك وتحولت لبتلات عجيبة، الصورة الوحيدة التي جعلتني أشعر أن هناك أحدا ما، في مكان ما، يحتفظ بذكرى تخصني، لذلك قررت بتهور البحث عنك..

بالفعل كان ذاك الحلم كقرع على الطبول، إعلان بأن الوقت قد حان للخروج من ذاك الوضع المثير للشفقة الذي علقت فيه، ولأن الوصول لما تطمح إليه ليس بهذه السهولة - ولو كان لما بقيت عالقة كل هذه السنوات - ، قررت أن تبدأ صراعا ضد العالم للوصول لهذا الحلم الذي ينبض بالحياة، الذي لا ينفك يناجي روحها لتستيقظ وتخرج في رحلة لمطاردته، رغم أنها لم تكن واثقة من حقيقته ولا مصدره ولا من صحة ما قد يترتب عنه، ورغم خوفها من التعثر مجددا والإلقاء بنفسها في دوامة لا مخرج منها، إلا أنها أرادت أن تغامر، أرادت أن تخاطر، أن تجرب على الأقل الهروب من سجنها قبل أن تحكم على نفسها بالفشل..

رغم أن الندم قد تخللها للحظات وهي في طريقها لتخاطر، بعد أن تغلبت عليها مخاوفها، بعد أن أكلتها الشكوك في أن قرارها الأهوج هذا سيكلفها كثيرا، لدرجة أنها بدأت تفكر في الاستسلام..

لكن بمجرد تذكرها للمحة فقط مما كانت تعيشه، رأت أن العيش هكذا في هرب أفضل من البقاء حبيسة للجدران في حرية زائفة زائغة لا حياة فيها، كما لو كانت تتجرع علي مدار الزمن سما ذا تأثير صغير على المدى الطويل.. وهكذا عزفت عن الاستسلام متشبثة بهربها للبحث عن نفسها من جديد، نفسها التي خسرتها على حين غرة وخسرت معها طعم الحياة الذي كانت تتوق لتذوقه بعد كل ذاك الجهد الذي بذلته لتحقيق غايتها من هذه الحياة..

لكن ها هي هنا، غير قادرة على تجاوز ما سبق من حياتها لمدى عمق تغلغل سمها فيها، احتلال واضح تسلل ليسرق منها نفسها ويجعلها تشعر بأنها لا تنتمي لأي مكان في هذا الكون، وهذا ما جعلها تفقد صوابها وتبدأ في صنع دمار خارجي تماما كالذي يتواجد داخلها..

أولندر، ولمعرفته التامة لشخصيتها الآن، ولكونها في عذاب كبير يجعلها بحاجة ماسة لأي شعاع رقيق من الأمل كي تتبعه في عتمة عالمها لدرجة أنها لحقت بحلم لا تعلم عن حقيقته شيئا، لم يلتفت نحوها، لم يعلم أي رد قد يناسب كلامها، وأي بلسم سيكون كافيا لمعالجة جراحها، لأنه في كل مرة كان يظن أنه استكشف القاع الذي هي عالقة فيه، يجد أنها على بعد دركات عديدة من المكان الذي يظنها فيه، تحت حطام سنين من الألم.. ولأنه في كل مرة حاول التخفيف عنها بإخراجها من الحطام، كان هذا يزيدها ألما إثر ذاك السحب القوي الذي تتلقاه في حين أنها ملتحمة مع شتات نفسها..

لذلك قرر هذه المرة أن يشاركها ألمها النفسي، أن يتقاسمه معها دون أن ينبس ببنت شفة، دون أن يحرك قيد أنملة من حطامها، فقط بتواجه واقفا هكذا في محيطها.. يسترجع هو الآخر آلامه الدفينة التي تمتزج بهذا الجو الكئيب كأنها رقصة هادئة تتزامن بمثالية مع الموسيقى الحزينة التي تصدر من هالة أزاليا الكئيبة..

*****

فراغ أبيض اللون... لم تجرؤ الألوان المائية الباردة أن تحدث الفوضى بداخله، وهذا لم يعجب أزاليا لحد كبير.

ملامحها كانت تقابل نقاء ورق الرسم - مستطيل الشكل والذي تضعه بطريقة أفقية فوق رجليها - في نوع من الضيق والضجر. منذ الظهيرة وهي جالسة على إطار نافذة غرفتها.. تنظر للخارج تارة ولورقها تارة أخرى، لدرجة أنها سرحت مرة أو اثنتين متناسية الى أين هي تنظر بالضبط.. الخارج ام ورقها وهذا بسبب تشاركهما في صفة سائدة.. بياض نقي.

لذا صارت تلعب - مستعملة فرشاة الرسم - بالألوان المائية الموجودة في كؤوس دائرية صغيرة الحجم والمرتبة على لوح خشبي يتوسطه كأس ماء اين تُنظَّف فرشاة الرسم ما إن تريد تغيير اللون، لكن.. كأس الماء لم يتلوث بسبب تقدمها في الرسم بل بسبب تصاعد انزعاجها من الوضع.

ضياع داخلي يغمر أعماقها، تعايشت معه لفترة طويلة من الزمن من خلال تجاهله.. ومؤخرا فقط قررت او ربما تشجعت.. لمواجهته. لم تعد تريد البقاء صامتة في وضعية الضعف التي تغطيها بستار التجاهل، هي تعلم - وأعماقها تعلم أيضا - أنها تخشى أن تكتشف ما يوجد بجوف هذا الضياع.

لكن ليس بعد الآن، فبعدما التقت بذاك الشخص، طريقة تفكيرها تغيرت.. رغباتها هي الأخرى انحرفت عن المسار الذي كان لا متناهي رتيب ممل.. لأنه كان يشبه حلقة متكررة بائسة.

تنهدت.. تركت فرشاة الرسم داخل كأس الماء وأسندت ورق الرسم على زجاج النافذة، أول محاولة للتعرف على المنافس باءت بالفشل، لا يريد أن يظهر ملامحه.. ولا حتى ظله، ما سره؟

أثنت رجليها وضمتها لصدرها من ثم غلَّفت كل جسدها بوشاح الصوف كبير الحجم الذي أشعرها بالدفء بعد ثواني قليلة من إنغلاقه عليها.

هل هذا الضياع فارغ.. أم كل ما هنالك أن قاعه عميق جدا وهي فقط تطفو على السطح؟..
إنها لكارثة إن كان الاحتمال الثاني - والتي هي تريد معارضته لأنها تدرك أن له النسبة الكبيرة - الفرضية الصحيحة.
هل الضياع الذي تشعر به نقي كنقاء الثلج بالخارج أم هو فقط يتنكر كالأرض التي تحته؟..
لا يمكن، فحتى لو كان يرتدي أكثر من قناع. هالته السوداء الخبيثة لا يُمكنه إخفاءها.. وهي تشعر بها، تعلم انه مؤذي.. تعلم أنه إن كشفت حقيقته فهو دون انتباه منه سيجعلها أشلاء.. مجرد حدس هي لا يمكنها نفي صحته ولا إثبات زَيْفِه.

أفكار.. أفكار..، أسئلة وافتراضات، تيارات وهمية متضاربة بعقلها.. ، الفوضى.

مثل كأس الماء هذا على اللوح الخشبي، الذي اختلطت فيه الألوان بشكل همجي قام بتعكير نقاءه عوض تلوينه.. هكذا هو هذا الضياع الذي تشعر به، لم يوضع في المكان الصحيح، ولا بالطريقة الصحيحة.. لذا المنظر ليس جميلا لتأمله بل يعطي رغبة للتخلص منه، وهذا ما الذي لا يمكنها فعله.. لا يمكن التخلص من الثقل الغريب الذي بداخلها، ولو استطاعت لفعلتها منذ زمن طويل.

الخارج كان أبيض ناصع لم يشعرها بالسلام.. بل زاد أحوالها سوءا، بالتالي دست رأسها في حضنها تخفيه داخل دفء نفسها، تغمر روحها برائحتها الخاصة، تستذكر من هي، من كانت، وما تريد أن تكون.. فلربما هي الضياع بحد ذاته، من يدري.. الاحتمال الثالث الذي لم تفكر في وَضعه بقائمة الفرضيات.

طرق خفيف على باب غرفتها الخشبي انتشر بسرعة داخل هدوء الحُجرة، تبعه إدارة المقبض ودفع الباب للداخل قليلا لفتحه، رفعت رأسها من حضنها نحو الباب فرأت الشخص الذي تشعر أنها حية تتنفس ما إن يتواجد في محيطها.. أولندر العجوز صاحب السنين المجهولة.

- أتقبلين دعوتي لحفلة شاي خاصة نحن - أنا وأنت - أعضاءها الوحيدان.. تقام بشكل سري في غرفة العلية؟

ابتسم في نهاية كلامه فردت عليه نفس نوع الابتسامة، الهادئة اللطيفة وهزت رأسها قليلا كرد على قبولها الدعوة، أردف أولندر قبل أن يغادر..

- أنتظرك..

ما إن أغلق الباب خلفه، نهضت من مجلسها، عدلت ثوبها ووشاحها على كتفيها، رمت بشطره الأيمن على الجهة اليسرى.. ليس لمزيد من الدفء، بل فقط لتصنع لنفسها عناقا تريد أن تحصل عليه منذ مدة لكنها لم ولن تجرؤ على طلبه.. هي حتى لم تتعلم كيف تطلب هذه الأمور.. المشاعر والأحاسيس؟ أمور ممنوعة في قائمة طلباتها.

نظرت للألوان داخل الفناجين الصغيرة الدائرية البيضاء، وإلى كأس الماء المعكر.. ورقة الرسم التي ابتلت ببخار النافذة، استنشقت الهواء بقوة وزفرته بغضب، حملت كل شيء وخرجت من غرفتها ذاهبة لتنضم إلى أولندر تشاركه بعض الشاي الدافئ لطَرد البرودة من أطرافها المرتعدة بسبب الجو القارس لهذا اليوم.

عبرت الممر المؤدي إلى الدرج اللولبي والذي بدوره يؤدي للطابق أين تتواجد غرفة العلية، المسار كان مضاء بفضل ثلاثية شموع معلقة كل عشر خطوات.. ما إن وصلت للدرج وبعد وضعها لقدمها في بداية السلم توقفت لبرهة، ارتعشت بسبب الرياح الباردة التي صفعتها والقادمة من النوافذ المحرومة من الزجاج والمبعثرة في جدار السلالم.

بكل روية صعدت نحو الأعلى، تتغاضى عن البرد وتتغاضى عن رغبتها في توبيخ أولندر لتقصيره في عدم وضع زجاج يمنع دخول الرياح فقط لأنها ستحصل على بعض الشاي.. تعلم أنها ستنسى هذه التفاصيل المزعجة ما إن ترتشف القليل، لهذا لا تريد أن تتعب عقلها بالتفكير كيف عليه ان يصوغ الكلام بعد قليل.

ما إن اقتربت من نهاية الدرج، وعلى مستوى نافذة متواجدة هناك أوقفت تقدمها، نظرت للخارج للحظات، عاصفة ثلجية قادمة لهذه الليلة فالثَّلج بدأ يتساقط.. بعض الخصلات الليلية من مقدمة فروة شعرها كانت تتطاير للخلف تفسح المكان أكثر لأجل الرياح لتضرب كل بقعة من وجه أزاليا التي كانت ترتدي ملامح ميتة على محياها ونظرات شاردة داخل مقلتيها،.. تمثال بشري على الدرج الواحد والعشرين اسمه أزاليا، هكذا كانت لتَبدو لزَائر دخل على غفلة إلى هنا.

في حركة مخادعة عنيفة لم تتنبأ بها هي شخصيا، رمت ما كانت تحمله من أدوات الرسم من خارج النافذة، ومثل ما هي معتادة على فعله، التجاهل.. تجاهلت ما حدث توا وواصلت الدرجات التسع المتبقية كي تصل لوجهتها.

وضعت يدها على مدخل الغرفة، باب مزدوج خشبي.. مررت أناملها عليه تتحسس تشققاته، تساءلت كم مرَّ عليه من الزمن وهو صامد هكذا رغم كل ما تعرض له من تأثيراته.. وهل ستتمكن هي الأخرى أن تتحمل أثار الزمن عليها أيضا أم أنها ستصاب بتشققات سَتحطمها لشظايا؟.. لطالما كررت الموقف والسؤال، في كل مرة تقف على هذه العتبة ثم بعدها تدلف إلى الداخل بدفعها إحدى أنصاف الباب.

رائحة الياسمين طغت على حاسة شمها..
ايمكن للمرء أن يشعر بالدفء من خلال رائحةٍ فقط؟ ربما لن يحصل على دفئ على المستوى الجسدي، لكن على المستوى النفسي؟..أجل!

- في الوقت بالضبط.. لقد أضفت توا بعض الأزهار الطازجة للإبريق مما أدى لتقوية الرائحة.

حدّثها أولندر بينما كانت تأخذ مجلسا - قريبًا من المدفأة - من الطاولة الدائرية التي تتوسط الغرفة.. تم تزيينها بمَفرش طاولة أبيض اللون.. مزهرية نحيفة بيضاء هي الأخرى تحتوي على بعض الأغصان الطازجة من الياسمين، حتى كؤوس الشاي كانت بيضاء اللون.. ما بال الأبيض يلاحق ويهاجم عينيها لهذا اليوم؟

أرادت أن تجرب الشتم لِمرة في حياتها لكنها أمسكت أعصابها واستعملت النقد اللاذع الذي تجيده منذ نعومة أظافرها.

- أجل، رائحة قوية تسبب الاختناق، أريد طلب فتح النافذة من أجل بعض الهواء النقي لكني أخذت جرعتي من النسمات الباردة التي اخترقت جلدي في طريقي إلى هنا.

من قال أنها لن تتحدث عن المأساة التي تعرضت لها في طريقها لحفلة الشاي هذه؟ هي لن تتجاوز الأمر طبعا.

ابتسم اولندر بهدوء على كلامها، لن يتأثر به.. يعلم أنها طبيعتها لا غير، ولن يتذمر منها فقد تقبلها من اللحظة الأولى كما هي بالضبط.
سكب لها بعض الشاي، ثم سكب لنفسه وأخذ مجلسه المقابل لها وللمدفأة.

لم يتبادلا الحديث، انعزل كل واحد منهما بكأس الشاي الخاص به.. دفئه، عبقه.. وتأثيره.
في الخارج العاصفة بدأت الحفلة هي الأخرى، وحبات الثلج افتتحت أول رقصة فالس مع تيارات الرياح العتية.
صدى تفرقع الفحم الذي مثَّل الموسيقى الداخلية كان الصوت المتحدث الوحيد داخل الغرفة.

بعد ارتشَافتين أو ثلاث، أزاليا أزاحت حاجز الصمت بينها وبين أولندر بمزحتها الساخرة وهي تعيد كأس الشاي لموضعه على الطاولة،..

- ياسمين! في جو عاصف كهذا؟ أم بصرك ضعف لحد أنه بدأ يهلوس؟ أتظن أن الثلج بالخارج يكون وقت تفتح أزهار الكرز؟

أولندر ابتسم على تعليقها بدفء كعادته، رافعا نظراته نحوها، عيناه الفضيتان برقتا تحت تأثير إنارة نار المدفأة المتواجدة على بعد خطوات خلف أزاليا، ردة فعله الجسدية هذه مسحت الابتسامة المستهزئة من محيا أزاليا ورمت بعينيها بعيدا نحو ركن من الغرفة تدعي أنها تتأمل احتراق الشموع المشتعلة هناك.. سألها أولندر بصوته الهادئ العميق،..

- وما خطب الياسمين في حضور الثلج؟ ألا ترينَهما متلائمين، يشتركان في النقاء.. يختلفان في طاقتهما الداخلية، أحدهما بارد والآخر دافئ، اجتماعهما ينتج الاعتدال والتوازن الذي يبحث عنه الكل.. الكون بأسره يبحث عن التوازن والاعتدال..أزاليا.

أنزلَت نظرها لحجرها، تشعر بالخجل من حركة سخريتها منه. إرادتها في خلق حديث بينهما - محاولة منها لتغيير الجو المضجر - انتهت بها إلى إفساده من أوله. لم ترد إضافة كلمات أخرى، أرادت لو تعود بالزمن بضعة دقائق للخلف فقط تواصل فيها ارتشاف الشاي بهدوء لكن ما حدث قد حدث.
أولندر شعر بتَضايُقها من الموقف بالتالي بادر هو بالحديث مستندا على ما تحدثت عنه منذ قليل ليغير الجو بطريقة سلسلة،..

- الياسمين ر~..

- عنصر من الربيع فقط، نصنع به الشاي ونزين به المزهريات فقط لنشعر بتواجد الربيع، نشفي جراح أرواحنا من ليالي الشتاء الطويلة الباردة الموحشة، ونستعد لبداية جديدة جميلة. رائحته ومذاقه في توقيت كهذا تبعث فيَّ السرور كأني في الربيع ثم ألمح الثلج من النافذة فأتذكر أننا في قلب الشتاء. هذا مزعج، الأمر يبدو كخدعة.. وهم نهرب إليه لتفادي حقيقة الواقع.

قاطعته في غضب، واسترسلت في كلامها بكل حنق وانفعال. قليلا بعد وربما تبكي.. لم لا!
شيء ما هز كيانها بغير إذن منها.. وهذا غير مسموح البتة.

كانت تفرك أنملة سبابتها اليسرى بظفر إبهامها الأيمن وما تزال تواصل في فعل ذلك رغم أنها أحدثت جرحًا سطحيّا.. جرح بسيط.. لكنه مؤلم وحارق، أرادت أن تشغل بالها بألم غير الألم الذي تمركز في صدرها من العدم، تغيرات مزاجها بسبب تفاصيل تافهة بسيطة كل مرة باتت ترهق أعصابها، ولم تجد إلى الآن طريقة لمحو هذا الأمر من شخصيتها.

- وما خطب تذكر الربيع في قلب الشتاء؟ لا بأس بالهرب من الواقع أزاليا، نحن نحتاج بين الحين والآخر إلى منفذ يُمكِنُنا فيه أن نرتاح من أتعاب الواقع النفسية.

- لا.. هذا ليس صائبا، إنها فوضى لن نلمحها إلى حين أن نكتشف أننا في ضياع بسببها.

صمتت بعدها، ارتشفت من شايها ورمت بنظرها نحو النافذة تتأمل رقصات الثلج المحتدمة التي تصفع زجاج النافذة بين الفينة والأخرى كي تعلم أنها في قلب الشتاء ثم ابتلعت مذاق الياسمين غير سامحة له بإيهَامها بأشياء لا تصح.

أولندر مد أصابعه نحو زهرة ياسمين معلقة في الغصن الذي داخل المزهرية، تحسس نعومة إحدى بتلاتها وحدّث أزاليا بنفس الطريقة الهادئة لكن مع مسحة من الحزن في نبرته،..

- الياسمين رقيق ناعم، ملمسه دافئ.. صحيح أنه لا يناسب الشتاء لكن.. في الشتاء، في لياليه الباردة نتذكر أمور جميلة من الماضي، نتذكر دفء الربيع، نتذكر صوت العصافير.. خضرة العشب.. نتذكر جمال الحياة.. أشعة الشمس، وابتسامة.. الكثير من الابتسامات.

أعاد صياغة كلامها على أسلوبه، وأضاف لمسته التي لم تغفل عنها أزاليا، رمت بنظرة جانبية نحوه فرأت انكسار نظراته وهو يتأمل الزهرة الصغيرة الناعمة التي يتحسسها، ثم سألته في نوع من التأنيب لأنها أساءت الحديث معه بالمجان،..

- ابتسامة؟.. تتذكر أحدهم إذن، أم تريد أن تتذكره كي تحصل لروحك على بعض الدفء الذي سيساعدها على الصمود في جوف ليالي الشتاء؟

رفع نظراته نحوها، بريق عيناه الفضيتين تحت تأثير الإنارة القادمة من المدفأة سبب لها غصة في حلقها للمرة الثانية، أجابها..

- لا أتذكره، ولا أريد أن أتذكره.. بل فقط أشتاق له، بجنون.. منذ سنين عدة... أشتاق له.

ضاق صدرها بسبب الكلمات؟ التصريح؟ أم النبرة المستعملة؟

لمَ بدى لها كأن بعمقه جرحًا لم يلتئم ولا يمكن له أن يلتئم؟..
لماذا لوهلة تخيلت.. توهمت او ربما شعرت كأنه ذئب جريح مختبئ في جحره يتألم بمفرده في مكان ما في الجبال.. لا أحد قادر على مساعدته أو سماع أنينه لأن العاصفة بالخارج تعزله عن العالم؟..
لماذا حبا للإله، هذه النظرة المحترقة تؤثر على تجاعيد وجهه ولحيته الكثيفة البيضاء، بحيث تعطي هالة أنه حارب طويلا.. طويلا جدا لكن عاد أدراجه خاسرا لكل شيء، حتى نفسه ربما؟

عضت الجزء الداخلي لشفتها السفلية، تقاوم هذا الشعور الغريب الذي يقبض قلبها والذي ازداد جراء ما عبر ذهنها للحظات. تريد أن تحرر صرخة من جوفها لا تعلم لم بالضبط، اعتبرت الأمر ضربًا من الجنون لو فعلت ذلك، لهذا أمسكت بنفسها بكل ما تملك من قوة، لكن.. مهما امتلكت منها لن تستطيع أن تمسك بدمعتها التي لم تتأثر ببرودة مسارها على خد أزاليا، وظلت حارقة حتى عند سقوطها على يد أزاليا.

أولندر أخذ كأسه يرتشف منه في هدوء، مقلدا أزاليا في التجاهل.. حركة تعلمها منها ويطبقها في أوانها عكس أزاليا التي تمارسها في غالب الأحيان، في البداية كان يتأثر بعض الشيء من تصرفاتها اللامبالية، ولما فهم أنها فقط هي وشخصيتها.. لم يعد يعطي للأمر بال وصار يحب مثل هذا التصرف لحد أنه أراد اكتسابه، ونجح في ذلك.. خياله ساعده كثيرا في تثبيت هذه الصفة بشخصيته.

هكذا ببساطة أعطى لتلك القطرة التي ظهرت على خد أزاليا حكاية أخرى، مجرد حبة ثلج بالمصادفة تسللت من خلال شق غير مرئي بالسطح وما إن لمست جلد أزاليا ذابت بسرعة فائقة لتتحول إلى قطرة ماء تعرضت للجاذبية وانزلقت من وجه أزاليا.
وهكذا سيتمكن من تجاوز سؤال..."ما الخطب؟"، فهو يعلم أن أزاليا تكره مثل هذه الأمور ولابد أنها تعاتب نفسها بداخلها.. لذا لا داعي من زيادة الأحوال سوءا.

قامت أزاليا - كعادتها - هي الأخرى بتجاهل ما بدر منها، هي لم تمسح خدها حتى، بل بعثت بأناملها نحو زهرة ياسمين معلقة بإحدى الأغصان التي داخل المزهرية، اقتلعتها ووضعتها على الجرح الحارق بأنمُلة سبابتها.

قال ذكريات..قال، لنرى إن كانت زهرة الياسمين هذه قادرة على تذكيرها كيف كان جلدها سليما قبل قليل، وهل ستطغى تلك الذكرى على الألم أم ستزيدُه التهابا، هكذا فكرت.

بالحديث عن الذكريات، أزاليا تذكرت شيئا كانت قد بدأت بمشاركته مع أولندر قبل مدة،..

- أتعلم..
- بخصوص ماذا؟
- الغريب الذي يجتاح أحلامي بين الفينة والأخرى!
- أجل.. ما به؟
- ظهر مجددا قبل أيام، وهذه المرة لم يظل يحوم حولي كآخر مرة، بل غافلني ودفعني لداخل البئر!..رفعت حاجبيها مستنكرة حركة الغريب الذي تتحدث عنه.
- الوغد... شتمه أولندر وهو يحرك رأسه بخفة تارة لليمين وأخرى للشمال.
- بالضبط، شكرا لك... هي فعلا شاكرة له لأنه أضاف ما حذفته من كلامها بسبب بعض الآداب التي هي نادمة فعلا على تعلمها وحفظها عن ظهر قلب لدرجة أنها حتى لو حاولت التمرد عنها لاوعيها لن يسمح بذلك.
- فاستيقظتِ، أليس كذلك؟ سألها أولندر بينما يرتشف من كأسه.
- أجل، داخل حلم آخر.. أين كان يتم تتويج أحدهم، وخمن من!.. واصلت سرد الأحداث بحيوية، اقتربت بجسدها إلى حافة الطاولة بسبب الانفعال الذي ظهر مع كلماتها الأخيرة.
- ومن غيرك أنتِ!.. قالها أولندر ساخرا وهو يحك جفنه.

انكمشت ملامح أزاليا بعض الشيء، ليس لأنه كان صائبا في إجابته فقط.. وإنما بسبب الكلمات التي وظفها، لقد سمعتها من غيره، بنفس الطريقة الساخرة.

ما إن فرغ من الاعتناء بجفنه أعاد فتح عينيه يناظرها، ينتظر البقية..
ترددت بعض الشيء ما أن التقت عيناهما فنظرت بعيدا وارتشفت القليل من كأسها تدعي أنها مشغولة للحظات. ثم واصلت..

- أجل.. كانت أنا، المكان كان غريبا عن المملكة التي تربيت فيها، الجو والثقافة، حتى أسلوب الملابس، كان هناك الكثير من الموجودين في قاعة التتويج.. وأنا كنت على العرش، هنالك من تعرفت عليهم، وهنالك من لا أعرفهم لكني أشعر أني رأيتهم في مكان ما.. من زمن ما..ربما؟! مربيتي كانت حاضرة، لما رأيتها على الجانب الأيمن لي لم يخطر ببالي ولو لبرهة أني أحلم، كان الأمر واقعيا جدا.

ثم صمتت، وشردت في فوهة كأسها التي كانت حوافها تستعيد بعض الدفء بعدما بردت - بسبب قرب انتهاء الشاي - بفضل أنامل أزاليا التي كانت تمر عليها في حركة دائرية مكررة.

- ثم ماذا؟.. سألها أولندر لأجل التتمة، وكي يخرجها من شرودها في آن واحد.
- ثم.. تم إطلاق الأبواق.. وفُتحت باب كبيرة الحجم في آخر القاعة، وذاك الغريب هو من كان خلفها، سار نحوي لوحده وبين يديه تاج ذهبي. صعد بضعة درجات ليصل إلى مستواي.. انحنى لي مقدما التاج نحوي.. ترددت، لم أعرف ما الذي علي فعله، الجميع كان ينظر إلي، حتى هو رفع ناظريه إلي لأني لم أحرك ساكنا وهمس.."هيا.. ارتديه لكي يهتف الحاضرون باسمك".. فأجبته هامسة بدوري.."ولماذا قد أرتدي التاج؟.. لا أظنه لي أصلا"، فأجابني راميا بنظراته للخلف ثم معيدا إياها نحوي.." ومن غيرك سيرتديه؟".

رفعت أزاليا نظراتها نحو أولندر، تحملق فيه بكل ثبات.. كأنها تريد أن تتقصى عن حقيقة ما، لكن أولندر لم يظهر أي حركة مريبة غير هزه لرأسه على أنه يصغي وموافق لما تسرده بينما يشغل نظراته وأناملَه بزهرة ياسمين على الغصن. بالتالي أردفت بجفاء،..

- قالها بكل سخرية تامة لم تعجبني، وخاصة الابتسامة الجانبية التي قدمها لي في آخر جوابه.

- يا لها من قلة أدب، لا بد من أنك أمرت بقطع رأسه ما إن ارتديتِ التاج وصرتي ملكة، لن أشك في ذلك.

أجابها أولندر وهو يسند نصف وجهه الأيسر على راحة يده، ينقل نظراته بين الزهرة وبين وجه أزاليا مع ابتسامة هادئة تعلو محياه، لكنها لم تبادله إياها.. بل ردّت عليه بجفاء، وتعابير جادة باردة،..

- كلا.. للأسف، لأنه ما إن ارتديت التاج ووقفت من على العرش أعلن أني صرت رسميا الملكة.. مربيتي العزيزة دفعت بي للخلف أين كان يوجد مجرى مائي، ما إن دخلت بعمقه استيقظت مهلوعَة،.. يا لها من نهاية.

ابتسامة أولندر اختفت، وزهرة الياسمين التي كان يداعبها فقدت احدى بتلاتها.
ارتشفت أزاليا آخر جرعة من الشاي خاصتها، نهضت من كرسيها.. شكرت أولندر على الدعوة بكل أدب، ثم غادرت الحجرة، شعرت أن التيار الداخلي لم يعد جيدا، شبح العاصفة التي بالخارج بات يحلق بين الجدران.. مسببا برودة بروح كل منهما.

في أثناء نزولها الدرج الذي اكتست بعض أركانه بكمية من الثلج، انتبهت لزهرة الياسمين التي وضعتها سابقا وبقيت تضغط بها على جرحها السطحي، أفلتَتها من بين إبهامَها وسَبابتها بفتحها ليَدها.. طارت الزهرة التي تغير لونها إلى البني الفاتح مع الرياح..

الجرح الذي كان أسفلها.. اختفى.

****

- أولندر..
نبست فجأة وهي تحدق بانعكاسها على سطح الشاي الذي تحتضن كوبه بكفيها، بعد أن بدا عليها استيعاب شيء ما..
- نعم
أجابها وهو يضع كوب الشاي خاصته على جنب، ليوليها كل اهتمامه، متناسيا للحظات حفلة الشاي التي أقامها في العلية ليلا قبل موعد نومها ليمنحها جوا مهدئا للأعصاب.
- أظنني علمت معضلتي.. أخيرا.
- وماذا تكون؟
- أنا.. ولدت بحظ سيء.. أو أنا ولدت محرومة من الحظ، احتمالان مختلفان لكن بنتيجة واحدة.
- أو ربما.. أنت هي الحظ ذاته.

ارتسمت ابتسامة شبحية على محياها وهي تنظر إلى كأس الشاي خاصتها بينما تأرجحه بهدوء في كل الاتجاهات.. شعرت ببعض الدفئ يغمر دواخلها إثر إجابة اولندر.. هو دوما يملك شيئا يعاكسها ويناقضها به لكن لا يهجم عليها مستعملا إياه وإنما يلقي به ناحيتها لكي يمسك بها بواسطته ويعيد سحبها من الهاوية التي تكون مستعدة أن ترمي بنفسها داخلها لتبقى تغرق في فراغها للأبد.

هي الحظ ذاته، الأمر محزن رغم أنه سحري.. لأنه لا يمكن لأي شيء أن يرى نفسه أو يستعمله بطريقة انعكاسية عليه، هي لا يمكنها أن تساعد نفسها بل مهمتها مساعدة الغير لا غير. رفعت بنظراتها نحو أولندر وسألته بنبرة خافتة.. باهتة.. متألمة..

- إن كان الأمر كذلك.. إذن أنا حظ من؟
- لا أعلم.
- لمَ الكذب.. أنت دوما تعلم، أولندر.

ارتشف قليلا من كأسه قبل أن يجيبها يبلل بالشاي حلقه ليخبرها بشيء آخر فيجعل دواخلها تصارع أفكارها.. هي طلبت أن يخبرها وهو لن يرفض لها ذلك..

- لا أعلم حظ من تكونين لكن أعلم أنك أمل أحدٍ يقاوم الحياة ليبلغك مهما كانت الطريق إليك وعرة مرهقة خطرة.
- إذن أنت لا تعلم فعلا.

أجابته بغضب مكتوم وغادرت إلى غرفتها لا تريد أن تسمع أكثر.. لا تريد أن تشعر بالدفء أكثر فزيادة الدفء يجلب نيرانا تجعل قلبها يحترق. راقبها أولندر وهي تخرج من الباب تاركة إياه مفتوحا على مصراعيه وتتبع وقع خطواتها إلى أن اختفت.. أفرغ ما تبقى في كأسها داخل كأسه ثم تجرع الكل دفعة واحدة، نهض من مكانه بعدها وتقدم إلى المدفأة ليحصل على إنارة جيدة تمكنه من رؤية قاع الكأس.. وتشفير محتواه.

*
*

كالطفرة كان وسط كل ذاك الثلج الناصع الذي يغلف الأرض بفروه الرمادي ككنز تاريخي من الفضة الفاخرة، شق ذاك الذئب طريقه عبر الثلوج بسرعة وكأن له موعدا مع فريسة عليه أن لا يفوتها على نفسه. متجها نحو الجبال في عز عاصفة

ثلجية تخفي الشمس من خلفها وتكاد تحول المنطقة لقطب متجمد ثالث، غير متردد ولا متكاسل عن السعي في سبيله، لم تمنعه الظروف من الهرب مما عُلق على رقبته من مسؤولية..

توغل في الجبال بعد مسيرة شاقة، وعندما رأى هدفه يلوح في أفق مرآه توقف للحظات في مكانه محدقا فيه كأنه لا يصدق بلوغه مسعاه، كما لو كان يتأكد من أن ما يراه ليس بسراب خادع، ليس بوهم يستدرجه نحو فخ بل حقيقة سيطئ في أرضها قريبا..

توقفه هذا للتأكد ليس بالشيء الغريب، فهو قد اعتاد على تلقي الخيبات فقط في حياته، لم يعرف سوى الفشل وانعدام الأمل طوال حياته لذلك لم يشأ أن يغرق نفسه في أحلام يقظة لا طائل منها وهو لم يتأكد من وجود هدفه بين يديه بعد..

وهدفه على غير عادة فصيلته من المفترسين لم يكن طريدة تصلح كوليمة له، بل كان حقل نباتات البرسيم! التي بدورها لا يمكن لها أن تنبت في طقس كهذا، لكن شاءت الأقدار أن تمنحها دورها في الحياة أبكر من المعتاد، دون أن تصرح إن كان التوقيت هذا نعمة أم نقمة..

فرائس الذئاب لحوم طازجة، هذا قانون الطبيعة الموجود من الأزل، غير أن لكل قانون استثناءً، فالظروف أحيانا ترغم المرء على التخلي عن فطرته، هكذا أغرق نفسه في حقول البرسيم باحثا باستماتة عن شيء ما بين كل نبتة وأخرى..

بعد ساعات من البحث الطويل دون جدوى ارتمى أرضا مستسلما، فاقدا للدافع الذي جعله يقصد هذا الحقل راكضا بكل قوته، وأخذ يزفر بتعب.. لكن في لحظة ما، وقعت بلورتاه الرماديتان على شيء غير معهود، شيء نادر الوجود،
ورقة البرسيم ذات الأوراق الأربعة..
زهرة الحظ..
هدفه الذي جعله يمشط الجبال كل يوم في انتظار ظهوره قد بان أخيرًا..
انتفض من مكانه وهرع نحوها، التقطها بأنيابه وعاد أدراجه، محاولا أن يحمي زهرة الحظ من هذه العاصفة العاتية وكأن حياته تعتمد عليها..
وصل بعد مشقة لبئر وسط اللامكان، حيث كنت واقفة أنظر لما بداخلها، وما إن لمحني عوى وكأنه ينادي باسمي كي انتبه لوجوده، وما إن التفتت إليه ركض نحوي وقفز باتجاهي كما لو كان يرجو عناقي، لكن البئر من خلفي عانقت كلينا..
- ثم ماذا حدث؟
استفسر أولند عندما صمتت عن الكلام فجأة، فرفعت بصرها نحوه، كانت جالسة على حافة البئر المتواجدة في محيط القلعة متشبثة بالعمود المغروس بين طوب البئر لحمل الدلو، وهو كان واقفا بجانبها يدلي دلوه لاستخراج بعض المياه.

- كان قد أحاط به غبار فضي غريب، جعله يتحول من ذئب لبشري، وقد كان نفسه ذاك الشاب الذي يتردد غالب الوقت على أحلامي.. انتقل فجأة من السقوط الحر للتحليق وأمسك بيدي ثم صعد بنا لنخرج من البئر، لكن المكان لم يكن ذاته الذي وقعنا منه، خرجنا في حقل ذي سنابل ذهبية متمايلة لم يسبق لي أن رأيت له مثيلا، وما إن حططت على الأرض رأيته يخرج كتابا من العدم وكان يطفو في السماء وصفحاته تتقلب من تلقاء نفسها إلى أن وقعت على صفحة فارغة، أخرج بيده الأخرى فقاعة تحمل زهرة الحظ التي كانت معه عندما كان ذئبا والتقطها بيده كي يلحقها بالكتاب.
ما إن صارت جزءا منه أخذت صفحاته تتقلب مجددا لكن ببطء هذه المرة.. كانت سبع ورقات وفي كل واحدة منها زهرة حظ ملصقة بها، عندما حطت على أول واحدة توقفت الصفحات عن التحرك وقام بتحريك الكتاب نحوي، لكن قبل أن أتمكن من الإمساك به استفقت..

- إذا يبدو أن حلمك هذا قد أجاب عن سؤالك..

تكلم بعد أن طغى صفير الرياح على المكان لفترة مشيرا لحديثهما من حفلة شاي الليلة الماضية، لعلها تكتفي بهذه كإجابة دون أن تغضب.

- تقصد أني حظ شاب لا أعرف عنه شيئا سوى مظهره وكونه قادرا على التحول لذئب؟ وفوق هذا لا يظهر إلا في أحلامي؟ يا لسخفك..

ما إن أنهت حديثها همت بالنهوض غير أن البئر رفضت توديعها، قد انزلقت وهوت نحو قاعها.
لحسن حظها أولندر العجوز كان بجانبها حينها ومد يده نحوها للإمساك بها، إلا أنه لم يكن هناك لحظة سحبها من البئر، بالأحرى لم يبد أنه هناك!
تجاعيده اختفت، لحيته الطويلة التي عفا عليها الزمن تبخرت كما لو كانت ثلجا ذاب بإشراقة شمس الربيع، شعر رأسه الأبيض الذي كاد يختفي أضحى كثيفا فضيا، تماما كمواصفات الشاب الذي كان يظهر في أحلامها..

- أنت بخير؟
سألها قلقا وهو يبعدها عن البئر بصوته اليافع الذي لم تعتده بعد، هزت رأسها مؤكدة على سلامتها وهي تحدق فيه بصمت محاولة أن تفهم ما يحدث لكن عقلها عجز عن تفسير هذا.

دخلا معا للقلعة وقد كان يقود الطريق وهي لا تزال غير مستوعبة لما يحدث من حولها، والصمت الغريب كان الضيف الخاص للجو بينهما لذلك قررت أن تطرده..

- هناك شيء يشغل بالي..
- ماهو؟
- من أين لك بكل هذه الأزهار والأرض محنطة بالثلوج؟!
توقف عن السير فجأة واستدار ليجيب عن سؤالها بنبرة حانية..
- من نبضات حب أحدهم..
- ما علاقة هذا بسؤالي؟
- في عهد الفراعنة، عباقرة عصرهم، ابتكروا التحنيط لحفظ جثث موتاهم، لأنهم صدقوا بوجود حياة أخرى بعد الموت، لكن كي تتم عملية التحنيط كانوا مجبرين على انتزاع كل الأحشاء من مكانها خوفا من تعفنها، غير أنهم استثنوا عضوا واحدًا، وهو القلب! هذا لأنه مقر الروح، مركزها ومحركها الذي لا حياة قد تتواجد في غيابه..

حدقت فيه بغرابة، محاولة التحقيق في شيء ما وسط كل تلك الفلسفة التي يتفوه بها شاب مثله، شاب لا يتصرف حسب سنه بل كعجوز مسن..
- إذا أين المغزى من كل هذا؟
- صبرا يا متسرعة! هذا الثلج الذي قلتِ أنه يحنط الأرض لم ولن يكون سببا يمنعها من إخراج نبضاتها من جوفها للسطح، هذا لأن قلبها ما يزال يدق بقوة في أعماقها ولن يتوقف قط ما دام خالقه لم يأمره بذلك..

رابط عجيب صنعه بكلماته توا، فلسفة عقيمة في نظرها لا تفسر ولا نقطة واحدة من سؤالها رغم ذلك هو يجعلها تبدو مقنعة، متقنة وغير قابلة للنقاش فيها! والشخص الوحيد القادر على فعل هذا هو أولندر العجوز..

أولندر، الذئب المتنكر في ثوب خروف، هكذا صار لقبه في عقلها، العجوز الذي يؤويها منذ فترة ليست بالقصيرة، الغريب الأقرب لدواخلها، لدرجة تكاد تجعله قاطنا فيها وهي لا تعلم شيئا عنه سوى اسمه، وجهه وكونه يعيش في هذه القلعة كأب لمئات الأنواع من النباتات، ها هو الآن يظهر وجهه الآخر، او ربما أحد وجوهه الأخرى..

ككتاب ذي صفحات عديدة، أخذت تراقبه وهو يقلب صفحاته بمفرده، يختار أي واحدة يطلعها عليها بحكمة ويخفي عنها البقية التي كتبت أصلا بحبر خفي لا يظهر إلا بإرادته.. وها هو الآن قد اختار صفحة خطيرة، ملعونة، تحمل بداخلها أحلك نوع من السحر الأسود، صفحة جعلتها تشكك في كل ما كوَّنه ذهنها من صورة عنه..

بينما كانت شاردة تغوص أكثر في بحر أفكارها، كان يواصل طريقه في الدرج، لكنه انتبه لغياب صوت خطواتها خلفه، لذلك توقف قرب النافذة المطلة على المحيط وناداها ليقطع حبل أفكارها المربوط بمرساة ضخمة لا تنفك إلا أن تسحبها أكثر نحو الأعماق..

- أزاليا..
جفلت ما إن ناداها ثم نظرت نحوه بصمت يحمل الكثير في مضمونه ولن يخفى عليه شيء مما فيه لكنه لم ينبس ببنت شفة حول الأمر، كأنه يتجاهل لأول مرة ما تحمله نفسها رغم أنها تبقيه واضحا للعيان..

- ألن تصعدي؟
سألها مادا يده باتجاهها ليصعدا معا، وهي لبت النداء، لكن ما إن وصلت ليده تجاهلت نداءها وتركتها معلقة في الهواء، تجاوزته وتوقفت عند النافذة.

- أنت كالمحيط..
شد كفه ممتعضا من تجاهلها لندائه، رغم ذلك ابتلع امتعاضه وقرر أن يشاركها الحديث، اتكئ على الجدار بجانبها عاقدا يديه مطالبا بتفسير.
- كيف ذلك؟ ما أوجه الشبه بيننا؟

- كلاكما له سطح واضح بسيط يراه الجميع، لكن ما يخفى في العمق أعظم، ووحده من يصل لذاك العمق سيجد كنوزه المخفية، لكن المشكلة تكمن في أن الوصول لذاك العمق ليس متاحا للجميع، بل لا يكون متاحا لأحد أحيانا..

قالت بنبرة هادئة مفسرة كما لو كانت تفسر أحلام شخص ما..
لقد أصابت في كلامها إصابة مزقت أحد لا بل كل أوتاره الحساسة، ليس لأنها اكتشفت شيئا عنه كما كان يفعل معها سابقا، بل لأنها وصلت للنتيجة واستثنت الجميع من الوصول للكنز، لأنها لو طلبت كان ليصنع لها سدا يجعلها تمر بسلام نحو الكنز، بل كان ليجفف كل قطرة من محيطه ليبقيها مستكشفة فيه، بل الأمر لا يحتاج لطلب أصلا! لا يحتاج لإذن منه حتى! بل يحتاج لوجودها هي ولرغبتها في استكشاف الكنوز المخفية التي تتحدث عنها، لأن كل شيء مفروش أمامها بوضوح، لكنها فقط ترفض أن تمعن النظر في محيطها..

- أحدهم بدأ يميل للفلسفة العقيمة بدوره..
قال ساخرا محاولا تجاوز الحديث كما تفعل هي، يحاربها بسلاحها، ثم ترك موضعه مواصلا صعود الدرج نحو الطابق الأول وبكل بساطة دون أي حديث آخر لحقت به..

وقفا قرب جدار يبدو أنه وجهتهما، لكن لا أبواب فيه ولا نوافذ..

- سنبقى نحدق في الفراغ؟ هواية جديدة لك؟
سألته أزاليا ساخرة من جلبه لها لهذا المكان في حين أنهما يقفان يحاكيان الجدار في تصنمه في حين أنه كان يمد يده نحو طوبة معينة في الركن دفعت بالجدار للتخلي عن تصنمه وتبنى الحركة ليفتح دربا ما، غرفة سرية أخفاها خلفه كل هذه المدة، ولم يعلم بوجودها سوى هذا العجوز الذي بدوره تخلى عن عجزه مرتديا الشباب، وها هو الآن يكشف لها عن مكانها.

الغرف السرية ليست بالشيء الجديد عليها، لأن القلاع عادة مليئة بها، لكن ما يخفيه داخلها هو ما جعلها مستغربة..
مكتبة..
رفوف ورفوف من الكتب اللامتناهية، في نهاية الغرفة مكتب وضع بجانب المدفأة الخامدة عليه رفوف أخرى من الكتب، جنة من المعرفة والعلم يخفيها في غرفة سرية، كأنها مهرب جميل من الحياة لكن مما قد يهرب هو وسط هذا الفراغ المدقع..

- لم قد تخفي مكتبة هكذا؟ أتخفي بين رفوفها كتب سحر أسود؟
قالت مازحة وهي تمرر يديها على الكتب المصفوفة متفحصة إياها لعل أحدا يلفت انتباهها فتلتقطه..

- ربما..
أجاب بنفس نبرتها وهو متوجه نحو المدفأة، انحنى ليصل لمستواها ثم مسح عنها الرماد بيديه ورفع أرضيتها الثقيلة ليسحب من تحتها صندوقا معدنيا متينا..
وضعه فوق المكتب حيث أزاليا جالسة ثم سحب منه لفافة قديمة، مخطوطة انتقلت عبر أزمنة عديدة وتبدو أثمن من أي شيء آخر في هذه الغرفة..

رمقتها أزاليا بفضول، أرادت معرفة ما مدى أهمية ما تحمله هذه المخطوطة للدرجة التي تدفع به لإخفاءها بهذه الطريقة..
لكنه لم يتركها تطلع على ما فيها، ونفسها لم تسمح لها بالسؤال عن شيء تعلم أنها ستتلقى الرفض القاطع كجواب له لذلك قررت أن تحوم حوله..

- لماذا تخفي هذه اللفافة هنا؟

- حتى أوقف الوقت.. أمنع تقدم الموج وتغير المد، فقط لتبقى الأوضاع مسالمة.. للأبد.

- كيف ذلك؟

- محو الماضي وقتل المستقبل.. تنفس الحاضر فقط!
أجابها ريثما يعيد المخطوطة لمكانها داخل الصندوق والصندوق لتحت المدفأة ورمى داخلها حطبا وأضرم فيها النار كخطوة أخيرة..

- لكنك لست مستعدًا لتحقيق ذلك بطريقة فعلية.. أليس كذلك؟
باغتته فجأة وكأنها تحاول محاصرته، تحاول استخراج ما بأعماقه، لكنها لا تستهدف الكنوز الآن، بل حطام وبقايا كل ما غرق فيها..

- ما قصدك؟

- لم قد تترك الرماد فوق القبر والجثة سليمة في حين أن بإمكانك جعلها رمادًا منثورًا؟.. أنت فقط تدّعي أنك تنقذ الحاضر إلا أنك مستعد لقتله ما إن تشعر بالملل منه.. فأنت لا يمكنك التخلي عن الماضي.. وما تزال تريد أن ترى شكل المستقبل، أنت في أطراف الطريق رغم انك تقف منتصفه، لا تريد أن تكون في الوسط لأن هذا يخنقك.. أولندر.
استمع لإجابتها عن سؤاله وهو ينتظر أن يجهز الشاي الذي يعده على نيران المدفأة وما إن جهز سكب لها البعض تزامنا مع إنهائها لتفسيرها، ارتشفت منها القليل لترطب حلقها الجاف من كثرة كلامها وما إن وضعت الكوب على المكتب تقدم نحوها ليكوب وجهها بيمناه وتحدث ممررا إبهامه على جانب شفتها..
- تعلمين.. الفلسفة العقيمة لا تناسبك..

ابتسمت له لكن لم تستطع أن تمنحه واحدة حقيقية من شدة الخمول الذي اجتاحها.. تثاقلت جفونها واستغرقت في نوم عميق.

*
*
*

استفاقت فجأة في غرفتها، مرتبكة، غير مدركة لما يحدث من حولها، لكن بدى عليها الاستيعاب ما إن بقيت ساكنة مكانها لبضع دقائق شاردة في الفراغ..
- كان حلمًا إذا..

****

- 14 -

- خيبة ما بعدها خيبة، تلك التي تعتريك إثر خذلان الأقربين إليك..

قالت فجأة وهي تداعب ذاك الخيط البرتقالي الحريري بعد أن غرسته في قطعة القماش لتقوم ببعض التطريز، دون أن تشيح نظراتها عنه، بعد أن تيقنت أن سر النسيان الحقيقي هو البوح ومن دونه لن يحط التخلي رحاله في نفسها،..

- حياتي تدهورت في اليوم الذي أشرقت عليّ شمسه كأفضل أيام حياتي، الأمر أشبه بذاك الحلم حيث كنت أتوج، لكن الفرق أني لم أكن لأغرق في النهر هناك،..

توقفت عن الكلام لتضحك ساخرة من موقفها في حين أنه رفع ناظريه نحوها متسائلا بعد أن كان منشغلا بحياكة شيء ما..
- وما نوع الجنون الذي ضرب محيطك ليفسد عليك يوم تتويجك؟
- لا شيء كبير، مجرد طعنة خفيفة في الظهر من قبل أخي الغالي، ملككم الموقر..
واصلت حديثها بسخرية فأجابها بنفس النبرة ملمحا لحديث سابق لهما
- منذ متى صار ملكنا؟ حسبما أذكر، لقد عينت نفسك ملكة المكان من فترة ليست بالبعيدة، وصراحة وقارك يجعلني أخشى أن يتم قطع رأسي في أي لحظة..

أنهى كلامه ممازحا، ليخفف عنها ألم ذكرياتها التي صارت تتحدث عنها أخيرا بأعجوبة،.. لكنها قلبت عينيها على مزاحه الثقيل وتركت عسليتيها تلتحمان مع حلقة التطريز التي تحملها بشرود..

- ما الذي جعلك تذكرين هذا فجأة؟
أخرجها من شرودها قبل أن تغرق فيه، في النهاية لن يتركها لتغرق في وحل ذكرياتها في حين أنها مدت يدها للخروج منه والتشبث بحبل النجاة الذي كان يحاول إدلائه لها منذ فترة..
- مجرد حلم سخيف، عقلي أظنه تمرد هو الآخر..
ضحك على كلامها، بدا له أنها تبنت أسلوبا ساخرا لمواجهة ما يزعجها، وهذا نوعا ما يسعده، أن تجد طريقة لتقابل ما يقف في وجهها من صعاب أخيرا بعد أن كانت تهرب منها مطولا كان شيئا أراد أن يعلمها إياه، وها هي الآن تصنع أولى خطواتها في الأمر..

- كان ذاك الخائن هناك، على رأس الحربة، يقود انقلابا في المملكة، ليطيح بكل ما كان مبنيا هناك منذ الزمن الغابر.. نظام المملكة المتكامل خرقه كما لو كان يمزق خرقة بالية، قال أنه يعترض على ما آلت إليه الأمور، وأنه أحق بالعرش منا جميعا، أحق به من الملك لأنه لم يحسن اختيار وريث له، لأنه لم يحدث تغييرا إيجابيا في المملكة وبدل أن يفكر بعقلانية في اقتراحه لتنصيبه وليا للعهد فضلني عليه لأسباب عاطفية.. وأحق به مني لأني حسب رأيه العبقري، ضعيفة وهشة ولا أصلح لقيادة حاشيتي فكيف بقيادة مملكة كاملة.. لكن المشكل الفعلي لم يكن هنا.. لقد طاوعه عناده وغروره لقتل والدي، وتلفيق التهمة لي، وفوق هذا ما إن انتشرت الأخبار صدقها الجميع، أغبياء..

روت له حلمها الذي صنعه عقلها من ذكرياتها ببرود كما لو كانت تسرد له قصة قرأتها في كتاب ما، في حين أن أصابعها لم تتوقف عن العبث بذاك الخيط البرتقالي وتمرير الإبرة الفضية عليه حتى بعد أن طرزته لتهذيبه.. وكأن همها الوحيد في هذه الحياة صار التركيز على هذه القطعة التي تطرزها غير آبهة بما قد يفسدها عليها..

- وماذا حدث بعدها؟
سألها محررا كل ما كان يحمله بين يديه ليجمع راحتي يديه في حضن مع ركبته، ومتخذا من الكنبة متكئا كي يمنحها كل اهتمامه، الذي على الأرجح لم تنتبه له لانشغالها بالتحديق فيما تصنعه..
- لا شيء كبيرًا.. مجازر هنا ونفي هناك، غير مهم..
حركت يدها الحاملة لإبرة التطريز في الهواء مستخفة بما تبقى من الأحداث، وعادت لتغرسها في قطعة القماش، خيطا تلو الآخر، تنسج ما تمليه عليها روحها..
- أخالفك الرأي، إن حدث وتكلمت عنه فهو مهم..
كلامه جعلها تترك التطريز لترمقه مستغربة، كيف له أن يراه مهما في حين أنها، المعنية بالأمر، صرحت بكونه غير مهم! لذلك قررت التأكيد على ذلك..
- بل غير مهم، وإن كان هذا يجعلني أبدو بليدة، لكنها حقيقة مفروغ منها، ولم أستوعبها للأسف إلا مؤخرا.. الجميع يخبرك أن الحياة صعبة، أن فيها خيبات وخذلانا وسقوطا أكثر من الصعود لكن لا أحد يعلمك كيف تتجاوز كل هذا.. كانت لتكون حياتي أسهل لو فهمت من البداية أن ما حدث قد حدث، لا الزمن يعود ولا الندم يتبدد، لذا لا داعي لتضييع المزيد من حياتي في التحسر على ما فات ولا في البكاء على خيبات الماضي..
درس مهم في الحياة، تلقاه هذا العجوز في آخر مرحلة من حياته، من شابة بربع عمره، بدأت بتطبيقه من اللحظة التي استوعبته فيها، في حين أنه وبالرغم من معرفته لهذا الدرس من سنوات شبابه إلا أنه عجز عن تطبيقه، فجراحه من تلك الحروب التي خاضها ما تزال متهيجة لا أمل في شفائها، فلا التحسر سهل ولا تركه أسهل..
- أحيانا، نظرة للماضي من زاوية مختلفة تجعلنا ندرك القيمة الفعلية لتلك المواقف، وحينها فقط سنعلم إن كانت تستحق نفس ردات الفعل أم لا.. كانت خيبة لأنه أبدى لي دعمه المتواصل، لكنها قد ولت، الشيء الوحيد الذي كان بتلك الاهمية في حياتي قد قتل ولا يمكن استعادته، أما ما تركه لي من بعده وتم أخذه فما عاد يهمني.. اهتممت كثيرا لدرجة أن خزان اهتمامي قد نفذ ولا مجال آخر لتتسع فيه تلك الخيبة أكثر..
عادت لتواصل تطريزها، وهي تقرر أخيرا الانسحاب من حربها طويلة الأمد ضد نفسها، والتنعم بما نتج عن ذلك من سلام أخيرًا..
إن كان خزان اهتمامها منتهيا، فلا بد أن خزانه لا حدود له.. أو أن به عطبا من نوع ما يجعله لا ينفك إلا أن يهتم بما يلهب جراحه أكثر.. كان هذا ما يجول في عقله، يقوم بحسابات عديدة في محاولة منه لتصفيتها، لكن ماضيه وحاضره اختلطا عليه في حين أن مستقبله المجهول يسحبه ليحثه على الاستعداد لما يخفيه له..

- ما الذي تطرزينه؟
بعد صمت مزعج دام في الأرجاء، وبعد أن طفح كيله من تناطح الأفكار في عقله، قرر أخيرا أن يسألها عما يبدو مهما لها في تلك اللحظة، تطريزها الذي تصب عليه كل تركيزها..
- زهرة ما.. رأيتها في أحلامي..
تحدثت باختصار كي لا ينقص من تركيزها شيء، لكنها انتبهت أنها بهذه الحركة ستتركه معلقا على جرف عال، لأنه، وحسب طبيعته التي صارت تعرفها، حتما ينتظر تكملة كلامها! لذلك تركت عدة التطريز مجددا وأخذت تسرد له الحلم الذي ألهمها.
- بعد تلك المجزرة، كنت محتجزة في زنزانة عفنة، جثث منتشرة في المكان، عظام مبعثرة وجرذان تتجول كأنها في مملكتها الخاصة، مكان لا يصلح لأن يبقى فيه بشري لأكثر من دقيقة.. بعد مدة طويلة من بقائي هناك، حدث وأن ظهر أمامي شيء عجيب.. فقاعة! وقد كانت تحمل بداخلها هذه الزهرة، فضولي دفعني لتحسسها لكن عندما مددت يدي لالتقاطها، شعرت بها تجذبني نحوها، كأنها بوابة سحرية، نقلتني نحو تلك البئر التي حدثتك عنها سابقا، وكان ذاك الشاب يقف قربها يمد يدا لانتشالي من البئر ويحمل بالأخرى نفس الزهرة التي كانت في الفقاعة..
حملت عدة تطريزها مجددا معلنة بذلك نهاية القصة، وأخذت تواصل في تشكيل زهرتها..

نهض أولندر من مكانه وتقدم نحوها ليلقي نظرة على ما تتفنن في صنعه، ليجد زهرة توليب برتقالية متربعة على قطعة القماش كما لو كانت تتفاخر بأصولها الملكية..
- تعلمين، هذه الزهرة تقربك..
أدلى بتصريحه الغريب حول وجود صلة قرابة بينها وبين التوليب، ما جعلها ترفع حاجبيها مستغربة فحولت نظرها إليه بانتظار أن يفك اللغز الذي وضعه بحديثه.

- وسط الحقول الباهرة، في مملكة الزهور الساحرة، يعقد مهرجان كل ربيع حيث تتنافس هذه الأخيرة حول أكثر واحدة آسرة، الورود الحمراء تستعرض فتنتها، الخزامى تتباهى برشاقتها، الياسمينات تتفرد برقتها، الزنابق تتفاخر بأناقتها وهكذا دواليك.. كلهن تطلعن للطليعة، لكن إحداهن في نظرهن لم تبد بديعة، وقلن أنها لم تتبع سير الطبيعة، رفضت التفتح والتبختر بجمال بتلاتها الرفيعة.. جراء ذلك وصفوها بالغريبة، التي لن تندمج معهم لا في مدة بعيدة ولا قريبة، المنبوذة التي تحتاج لمعجزة عجيبة. طبعا كلامهن تسبب في أذاها، جعلها تشكك في مدى قوة شذاها، صارت حتى تخشى إظهار ظلالها وبدل الافتخار توارت عن الأنظار.. لكن الشمس خالفتهم برأيها، فقد أعجبت بتفردها، واستغربت من تنحيها رغم أنها تبدي على عرش الطبيعة تربعها، فاستفسرت من الطبيعة فعلمت عن حزنها، لذلك قررت منحها هدية تبهجها، أسدلت أشعتها البرتقالية المغرقة ببهجتها، وخصصتها للزهرة المنبوذة دون غيرها، استقبلتها الزهرة فأشرقت هالتها.. اغتبطت بقية الزهور من إشراقها، أما هي فقد توجت أخيرا ونالت استحقاقها، فصارت كل الزهور توقرها..

انتهت قصته وبدا معناها واضحا، قصة سردها لرفع معنوياتها وإخبارها أن هناك في مكان ما في هذا العالم شخصا على أتم الاستعداد لمنحها الاستحقاق الذي يلائم مكانتها، أنها ومهما أنكر الجميع، ستبقى الملكة العظيمة التي لن يعوض مكانها أحد، لكن ما يقصده حقا لم يكن واضحا، في أعماقه كان يريدها أن تشع، أن تكون الشمس التي تضيء أيام عالمه البائس وتجعل كل من استخف بها يفقد بصره من لمعانها.. يريدها أن تعود وتستعيد ما كان لها من الأساس، أن لا ترضى بمجرد محاكاة لحياة كريمة بل أن تخلق لنفسها تلك الحياة التي ترسمها في خيالها.

******

- 15 -

أحدهم تمنى الا يُنسى، تخبط طويلا في هذه الحقيقة المستقبلية.. من ثم تفطن لأمر أنه إن لم يعش الحاضر فكيف للمستقبل أن يبقيه!
بالتالي قرر ان يعود ادراجه للخلف، من خيال المستقبل الى واقع الوقت الراهن، وما إن وصل اخيرا الماضي أشرق في ذاكرته ورمى بسلاسله كي يسحبه اليه.. نحو قاع خرج منه منذ زمن.
فكر مليا كيف يمكنه ألا يقع في الشبكة وكيف له أن يغرس نفسه في تربة الحاضر ليبقى ينتظر بهدوء أن يُزهر في هواء المستقبل.. ولم يجد سوى حل واحد، ألا وهو أنَّ عليه أن.. يَنسى، وليس بنسيان أي شيء كان.. بل نسيان نفسه.

يا لها من سخرية.. أن يتم طعنك بسيفك بينما كلتا يديك تُمسكان بمقبضِه.

أولندر كان واقفا أمام طاولة مكتَبته السرية ينظر للمخطوطة المفتوحة فوق سطحها، يمارس ضغطا هائلا على وعيه ليجعله ينكر ما استوعبه.
لم يستطع أن يفهم كيف تمكنت ازاليا من دخول هذا المكان رغم أن بابه كان جزءا من جدار يحتوي على نقش شجرة الحياة بطريقة تجعل شقوق المدخل تندمج مع الزخرفة، لا يمكن لأي أحد أن يفكر في إمكانية أن وراء الجدار حجرة خفية.. فقط إن تم إخباره بذلك.

" إن أردت جعل ماضيك غبارا منثورا
وتولد من جديد داخل نفسك نقيا.. مسرورا
صفحة بيضاء لا تملك شعورا..
أحصل على زهرة النرجس التي ستخلصك من ذاك الهاجس
هي متواجدة في قاع البحيرة التي تعيش فيها حورية القمر"

مرر أنامله على ما كُتب في المخطوطة.. ثم قام بدورة تفحصية بعينيه حول أرجاء المكتبة، المكان مرتب ومنظم.. تماما كما تركه منذ زمن بعيد، مما يعني أنه لم يتم لمس أي شيء ما عدا هذه المخطوطة المتواجدة على طاولة المكتب.. والتي خبأها بشكل خاص تحت أرضية المدفأة قبل أن يشعل فيها الكثير من الحطب ليتحول إلى رماد وبالتالي لن ينتبه أحد لوجود مخبأ تحتها، لكن أزاليا !.. نسي أنها ليست أي أحد.

أزاليا.. نسي أنها تجيد الطعن في النقاط الحساسة وأنها أفضل شخص فيما يتعلق بفتح كل ما هو مدفون، لأنها العمق.. لأنها السر.. ولأنها الماضي.. الحاضر، وربما جزء محذوف من المستقبل.
خرج من مكتبته مسرعا نحو الخارج للبحث عنها، عليه أن يجدها قبل أن تفعل ما يخشاه.. قبل أن تطعن ما حارب لإبقائه طوال حياته، قبل أن تقتل ما يبقيه حيا داخل القالب الميت الذي يجيد تحريكه، قبل أن تطفئ النجمة التي ترشده بالتالي يسقط في حفرة الضياع.. للأبد.

المساءُ كان على وشك أن يودع الأشعة الأخيرة من الشمس لهذا اليوم ويستقبل هدوء الليل الذي رسم مدخله في الأفق المناظر لأفق الغروب.
أولندر كان حينها قد وصل لحدود الغابة.. توقف لبعض الوقت يسترجع أنفاسه ثم عاد للركض باتجاه البحيرة، يسابق الشمس ليصل لوجهته قبل غروبها، يرجو من نفسه أن توصله قبل فوات الأوان ولو كان ذلك بلحظات معدودة.

في أثناء ركضه بين الأشجار.. أكثر من ذكرى وصورة ضربت عقله، أكثر من لحظة موجعة اجتمعت بين نبضاته، الكثير.. الكثير، كله صار فجأة في خطر أن يتم محوه بحركة وحشية ذات نوايا بريئة من طرف أحدهم.. "أزاليا".

- ماذا لو كنت أنا العلة؟ ماذا لو كنت أنا السبب والنتيجة.. المجرم والضحية؟.. ماذا لو كان كل ما في القصة أنا ونفسي فقط؟

سألته قبل أيام هذا السؤال الغريب في أثناء احتساءهما الشاي بينما كل واحد منهما غارق داخل رأسه، يذكر أنه لم يحاول أن يبذل جهدا ليفهم ما ترمي إليه ما تفكر فيه وفي أي بقعة من ذاكرتها هي تطفو. حينها كانت شاردة ناحية السقف وكأنها تتأمل النجوم.

- ما الذي ترينه هناك؟ ما الذي جعلك تقولين هذا فجأة؟.. سألها مستفسرا دون أن يصب اهتماما كبيرا في الأمر، ربما فقط ليندمج معها داخل أفكارها.. يشاركها حيزها ويهرب من قوقعة وحدته.

- لا شيء، فقط تذكرت فجأة شيئا شاهدته منذ زمن، والآن فقط أظنني فهمته.. لأنه ربما أنا جزء منه بشكل من الأشكال. أجابته معيدة نظراتها نحو فنجانها، تحسست حوافه من ثم ارتشفت القليل.

- ما هو هذا الشيء؟

- تمثال.. فتاة.. وسيف، حيث هي كانت تمسك بالسيف لكن عوض أن ترفعه عاليا تعلن القتال كانت تطعن به نفسها، وكأنها عرفت العدو الفعلي الذي يسبب الكثير من الألم الأسى والحزن.. بالضبط نحو قلبها مصدر كل المعاناة التي تشعر بها. أجل.. لا أحد يمكنه أن يجعلك ترى لون العالم من غير قلبك.

لحظتها.. بعدما سمع إجابتها تلك تمنى لو أنه أصم فقد تم فتح جرحِ الزمن ضمده له أكثر من مرة بينما الواقع غرس بخنجره فيه أكثر من مرة أخرى، بالتالي الآن هل الزمن سيعيد تضميد الجرح النازف مجددا؟ هل سيكون كفيلا لإيقاف الألم أم..؟ لحظتها اهتم بنفسه، بأعماقه الموضوعة على نار هادئة لكن حارقة ولم ينتبه أن أحدهم.. مصدر الجرح والألم.. في نطاق الخطر، وعدم انتباهه ذاك سيكلفه ثمنًا باهظًا.. "حياته".

اصطدم بشيء غير مرئي على حين غرة في أثناء ركضه ما إن قارب على الوصول لضفة البحيرة، وكأنه جدار سحري أسقطه للخلف لكنه سارع بالوقوف مجددا ونظرات الذهول تعتري محياه، ماذا يمكن أن يكون هذا؟ إنه في منطقته وحيزه لا أحد يمكنه أن يعبث بالجوار غيره. أعاد التقدم ممددا يديه للأمام ثم ما إن تلامست كفاه مع ما منعه من التقدم تشكلت موجة ضوئية خضراء انتشرت في كل الاتجاهات راسمة القبة التي تحيط بالبحيرة وضفافها.

- يبدو أنها الحدود.

صوت رزين لامرأة صدر من خلفه فاستدار يستعلم من جاء للزيارة في توقيت ومكان كهذا. ما إن التقت نظراتهما بادلها الابتسام وانكسرت ملامحه و لمحة من الأسى غلفت عينيه.

- أجل يبدو أنها النهاية... أجابها ماسحا بكفه اليسرى على رأسه للخلف.
- هذه عادة شخص آخر.. هل صرت تقلده مؤخرا؟.. سألته ساخرة من حركته تلك مع ضحكة خفيفة باهتة.
- أجل يبدو ذلك.

حل الصمت بينهما لبعض الوقت وحل الظلام معه، كان أولندر يبحث بعينيه عن أزاليا في الجهة الأخرى يتساءل هل وصلت أم ليس بعد؟ هل هي بخير أم لا؟ هل حدث ما خشيه رغم أن الأمر واضح أم هل تمكن الأمل أن يتشبث بالفرصة؟

- أفوان.. أنتِ.. لم تقدمي ذاك الشيء لها أليس كذلك؟ سأل المرأة الواقفة قبالته مع بحة رافقت صوته.

- أنت تعلم أنه لما يحين الوقت.. يجب تقبل الأمر.
- أجل.. أعلم، لكن.. أنا فقط لم أضع مثل هذه النهاية في الحسبان، أنا أردت وداعا لائقا.. بذلت جهدي طويلا لأحصل عليه، كان كل ما أردته واحتجته منذ زمن بعيد.
- لا يمكننا الحصول على كل ما نريده، عليك تقبل الأمر.. كما هي فعلت.

لم يستطع أن يجيب بحرف، كل ما استطاع فعله هو هز رأسه بالايجاب.. يدعي أنه فهم وتفهم، يحاول أن يتقبل.. يبذل جهده في النفخ على الشعلة التي احترقت داخله طويلا ليطفئها، لا يمكنه فعل أي شيء بعد الآن.. لا مجال لإعادة الحلقة فقد استهلك كل الفرص والنتيجة نفسها كل مرة.

لما يظهر النور في آخر النفق عليك أن تسير نحوه بهدوء لأنه لا يمكن ولا حتى في الأحلام العودة للوراء.

******

- 16 -

وجدت نفسها تخترق الضباب بعد أن ضاعت في مكان تجهله، ضباب كثيف يجعلها تكاد تقسم أنها في صدد اختراق غيمة ما، كانت تسير جاهلة وجهتها، تدور في حلقات غير قادرة على اختيار مسار صحيح لأنه غير موجود أصلا..
بينما تهيم في ضياعها، تراءى لها ظل شامخ جامد لا تبدو عليه آثار الحياة، لكنه امتلك هيبة فريدة دفعتها للاقتراب منه، دون خوف ولا هواجس، فقط تسير نحوه غير آبهة بما يخفيه هذا الظل من أسرار.. لكن على حين غرة، وفي حركة مباغتة وقبل أن تتمكن من معرفة ماهية هذا الظل، رأته يستدير نحوها.. توهجت عيناه فكانت الشيء الوحيد الذي تسبب في انقشاع بعض من الضباب في المكان، فاتضحت ماهيته.. كان تمثالا، تمثال لفتاة تطعن نفسها بسيف اخترقها وكاد يخرج قلبها من خلال الثغرة التي صنعها في ظهرها، لكن كل هذا لم يهمها بقدر ما استولى تحرك قطعة الحجر هذه المجردة من الروح نحوها وبعيون مشعة أيضا على عقلها..

ترددت للخلف خطوات فاصطدمت بشيء ما، أدارت رأسها تستطلعه إذا به صاحب العيون البنفسجية يرمقها من الأعلى، أحاط بذراعه حول كتفيها ووضع كفه على جبهتها مخلا أصابعه الباردة داخل فروة شعرها..

- يجب العودة الآن، سأكون هناك أنتظرك.. ومهما حدث ثقي أنني سأنقذك منه.

*
*
*

شهقت بقوة عند فتحها لعينيها فجأة وكأنها استفاقت من كابوس شنيع او كأنها عادت للحياة بعد صراع شاق مع الموت.
اقتربت مربيتها إليها بسرعة جاعلة بوقوفها المفزوع من شهقة أزاليا الكرسي الهزاز الذي كانت جالسة يفقد اتزانه فيسقط أرضا.

- هل أنتِ بخير سموك؟.. لا تخشي شيئا أنا هنا بقربك.

حدثتها مربيتها تطمئنها وتهدئ من روعها إلا ان ازاليا ظلت مضطربة الانفاس شاخصة البصر شاردة بنظراتها على غطاء سريرها، شعرت بشيء ما غريب.. شيء ما مفقود لكن لم تتمكن من أن تعلم ما هو، فقط ألم وغصة يحجزان أحاسيسها ومشاعرها لتطبيق عذاب قهري عليهم من دون سبب واضح.

تجاهلت أمر مربيتها ونزلت من الجهة الأخرى للسرير.. سارت ناحية المرآة الطويلة في الركن وبقيت تنظر لانعكاسها.. تتأكد أنها هي فلوهلة شعرت بأنها دخيلة في هذا الجسد.. لكن ملامحها المنعكسة على سطح المرآة نفت الفكرة من عقلها.
اقتربت مربيتها إليها وبيدها كأس ماء قدمته لها إلا أن هذه الأخيرة نظرت إليه للحظات مستغربة منه ثم نظرت الى مربيتها باستهزاء..

- ما سبب هذه المعاملة الخاصة فجأة وكأني لم استيقظ منذ زمن؟!.. أين الخادمات وأين حمامي الصباحي ما معنى هذا التهاون.. إعلان على عدم الانصياع والتمرد؟

- لقد كنتِ نائمة لمدة أسبوع.. سموك... أجابت مربيتها وهي تمسك كأس الماء عندها بإحكام بكلتا يديها، صمتت قليلا تناظر أزاليا ثم واصلت،.. ولقد جاءت تعليمات من القصر الرئيسي تأمر بانسحاب عدد من الحاشية والإبقاء على رئيس الخدم.. انا.. وبعض الحراس.

- إذن.. هل اقترب موعد إعدامي؟.. سألت ازاليا ساخرة وهي تبتعد عن مربيتها.

- ماذا؟! إعدام!.. الاندهاش ظهر بشكل واضح في نبرة مربيتها وملامح الصدمة استقرت على وجهها.

- لا تدعي الغباء.. لقد علمتُ أنكِ حليفة ذاك الخائن الذي أراق دماء صاحب العرش ونفى وريثه كي يجلس عليه منذ مدة ليست بالبعيدة.

- ما الذي تقولينه سموك؟.. كيف لي أن أطعن بولائي لك.. لقد اعتنيت بك منذ نعومة أظافرك وحلمت برؤيتك تتوجين ملكة الجميع من أول أنفاسك.. فكيف.. كيف تتهمينني بشيء كهذا مولاتي؟!

أغرورقت عيون مربيتها بالدموع لم تتمكن من التصديق أن الشخص الوحيد الذي أخلصت له لأزيد من عشرين سنة يتهمها بالخيانة وينفي كل ما قدمت له من ولاء وإخلاص.. حب واهتمام، بقيت واقفة مكانها تشاهد أزاليا تخرج للشرفة تستطلع الخارج متجاهلة كل ما تقوم مربيتها بقوله لها.

لم تعرف المربية ما قد تصنعه في لحظة كهذه لذا ما كان عليها إلا الخروج من الغرفة وترك أزاليا لوحدها بعض الوقت، ربما هي فاقدة لرجاحة عقلها بسبب نومها الطويل.. ولا أحد يعلم ما مرت به في الغابة وحين وصولها للبحيرة أين وجدها الحراس مغمى عليها على سطحها.. حمدا لوصولهم إليها بسرعة وإلا كانت لتموت غرقا.
سارت في الرواق ونزلت الدرج ثم واصلت في رواق آخر إلى قاعة فارغة من القصر لتحصل على بعض الراحة بدورها فقد مكثت مع أزاليا ساهرة الليالي تراقبها.

دخلت إلى القاعة وضعت الكأس على المنضدة الصغيرة قرب الباب واتجهت لتجلس على أريكة موجودة في المنتصف قبالة المدفأة.. تفكر في أمر شخص آخر، شخص عرفته منذ سنين عديدة.. شخص حارب طويلا مرارا وتكرارا ليصل إلى نجمة بعيدة المنال وكل ما استطاع فعله هو الاقتراب مسافة جيدة لنورها ورؤيته عن قرب.. تمتع بشعاع منه لبعض الوقت ثم قبل أن يدرك.. ذاك النور اختفى من مجال نظره فوجد نفسه قابعا في الظلام.. لوحده.. يودع نفسه.

- إذن.. هي لحظات احتضاره الأخيرة هناك في الأعلى؟.. صوت رجولي صدر في الغرفة خلف المربية.
- أجل.. بضعة أنفاس ضعيفة متبقية لختم قرون من ذاك النبض القوي.

أجابت المربية غير مبدية أية استغراب أو تفاجئ، فقط جالسة تحضن كفيها مع بعض فوق حجرها ولمسة من الحزن تغلف محياها. هي تعرف لمن يكون هذا الصوت.. رفيق آخر من سنين عديدة أخرى بالتالي لم تكن مجبرة أن تبقي قناعها الذي ترتديه.. وكلوحة تفقد ألوانها تدريجيا تغير شكل المربية بروية حيث انصهرت ملامحها داخل ملامح شخص آخر.. امرأة أخرى: أفوان.. حورية البحيرة.

- فلنأمل أنه سيحصل على موت هادئ فقط...

تكلمت بصوت خافت كان مسموعا للشخص المرافق لها في الغرفة رغم أنه كان بعيدا عنها أمام باب الشرفة رافعا رأسه يشاهد أزاليا الجالسة أمام طاولة شرفة غرفتها شاردة بنظراتها في السماء.

- كل ما علينا فعله هو الحرص على إبقائها هادئة قدر المستطاع حتى لا تسبب له الكثير من الألم وهو يغادر للعالم الآخر... قال وهو عاقد لذراعيه قرب صدره.

- وكأنها لم تسبب له ما يكفي طويلا... ردت عليه أفوان ساخرة من المعاناة اليائسة التي مر بها ذاك العجوز سيء الحظ لدهر من الزمن: أولندر.

- لكن أليس مذهلا كيف لها أن تبقى متشبثة في عالم فارغ كهذا لم يبق منه من الذكريات شيء؟.. تساءل متعجبا.

- لأنها ليست مجرد ذكرى محفورة في أعماقه.. هي كانت الهواء الذي يتنفسه.. النبض الذي يعيش عليه، المخبول.. لم يستطع أن ينظر لأي شيء من الحياة سواها... أجابت وبحة ألم في صوتها.

- مجرد بائس إذن... علق ساخرا وهو يبتعد من مدخل الشرفة لأن أزاليا تقدمت لسياج شرفتها ولم يرد أن تعلم أنه يراقبها.

- هو كذلك.. للأسف... قالت بابتسامة خفيفة طفت على محياها.

ثم عم الصمت في القاعة.

تلك الليلة السماء أمطرت بقوة وكأنها تتقيء فؤادها ألما ومن فينة وأخرى كانت هنالك رعودٌ مزمجرة ثم برقٌ ضارب للأرض بسوطه، كان من السهل استشعار الغضب في الجو إلا أن أزاليا لم تعطِ للأمر اهتمامًا، فقط تتجول بين أروقة القصر التي كانت تشع من حين لآخر بالبرق. القصر كان يبدو لها مهجورا.. موحشا، هي لم يسبق لها أن عاشت من دون مجموعة من الناس تحيطها لخدمتها ومن شدة اعتيادها على كونها محاطة بالأشخاص لخدمتها صارت تتجاهل وجودهم لكن الآن باختفائهم من محيطها أحست بالفراغ الذي تركوه.. فراغ يُشعر المرء بالوحدة والعزلة في اللامكان.. فراغ مرعب ومع ذلك بشكل ما لم تتأثر بالوضع كثيرا فهي في دواخلها تحس أنها عاشت هذه الأجواء في مكان ما.. لا حاشية ولا خدم حولها فقط شخص يرافقها ويشعرها بالراحة وهذا طبعا لم ولن يكون المربية التي تسير خلفها.. من ثامن المستحيلات أن تكون ذاك الشخص.

إحساس داخلها يشع بخفوت تام يظهر من انعكاسه على ظلمات روحها ابتسامة هادئة.. ضحكة دافئة.. نبرة حالمة، نظرة فضية وزهرة وردية، كل هذا كان يتألق ويختفي كالبرق المتفجر في الخارج جاعلا أزاليا تختنق في حوض من الحزن والكآبة. توقفت عن السير قرب نافذة بارتفاع الجدار في رواق عودتها لغرفتها ثم سألت وهي تنظر لمسار البرق الذي بدا لها كخيط يربط بين الأرض والسماء..

- سولان،.. كلمت مربيتها.
- نعم سموك؟
- أسبوع.. كنت نائمة لأسبوع أليس كذلك؟
- أجل سموك.. الطبيب قال أنك تعرضت لصدمة ما عند خروجك للغابة تلك الليلة قبل أسبوع.
- خرجت ليلا إلى الغابة؟.. أنا؟.. استدارت أزاليا مندهشة ناحية مربيتها.
- أجل.. لم نستطع معرفة السبب الذي أوصلك إلى البحيرة، الحراس وجدوكِ على ضفتها مغمى عليك.

- أنا؟.. بحيرة؟

اندهشت أزاليا في استنكار غير مصدقة ما تسمعه، كانت لتتقبل أنها مرضت فجأة فهذا كان يحدث معها من حين لآخر منذ نفيها إلى هذه الجزيرة بعدما خسرت العرش الذي استولى عليه أخوها، لكن أنها خرجت ليلا قبل أسبوع من القصر فجأة دون سبب ثم إيجادها على ضفة بحيرة مغشيا عليها.. هذه صدمة.

- أجل سموك.. أنتِ... أكدت مربيتها.

بقيت أزاليا صامتة ساكنة مكانها قرب نافذة الرواق تفكر في فعلتها هذه التي لا تتذكر أمرها، تفكر أهي حقيقية أم كذبة من طرف مربيتها -من مجموع كذباتها السابقات- ثم التفت مغادرة إلى غرفتها، أين ظلت الليل كله تحاول أن تستوعب كلام مربيتها وتبحث عن صحته داخل ذكرياتها إلا أنها لم تجد شيئا سوى صدى اسمها في جوف تلك الابتسامة الخافتة.. وكأنه يتم مناداتها من بعد آخر.

مع اقتراب الفجر هدأ الجو في الخارج ودون أن تعلم كيف، كانت قد غفت بالفعل.

في ظهيرة اليوم الموالي قررت -أزاليا- أن تجلس في الحديقة مع ألوانها ولوحة الرسم بيضاء اللون وحارس في الخلف للحرص على سلامتها، بقيت شاردة في نقائها لبعض الوقت تتساءل متى فعلت هذا في السابق، متى جلست هكذا حائرة في لون ورق الرسم ولماذا خضرة العشب تجدها غريبة وكأن فناء الحديقة عليه أن يكون أبيضا بدوره مغطى بالثلج.

رفعت فرشاة الرسم وراحت تلعب بالالوان ثم قررت أن تلطخ اللوحة بالبعض منها تضرب بها هنا وهناك غير آبهة ثم فجأة ركزت على ما تفعله فقد لمعت صورة في ذهنها.. خطوط لأعلى وأسفل، على الجانب وبشكل متعامد، تصنع الهيكل ثم تملؤه، وانتهى الأمر بقلعة من برجين على اللوحة. ناظرتها بتركيز شديد تدقق فيها وتتساءل لماذا رسمت شيئا كهذا، هي معتادة على إعادة رسم ما تكون تراه من الطبيعة المقابلة لها إلا أنها في سابقة أولى من نوعها رسمت شيئا لا يكفي أنه لا يقابل نظرها ولكنها لا تعلم من أين لها بصورته في ذهنها حتى..

التفتت نحو الحارس تسأله،..

- أين هذا المكان؟
- لا أعلم.. لم يسبق لي رؤيته من قبل... أجاب بعدما ألقى بنظرة خاطفة على اللوحة.
- ألا توجد قلعة مهجورة هنا على الجزيرة؟.. سألت بنفاذ صبر.
- القصر هو البناء الوحيد هنا... أجاب.

نهضت أزاليا من مجلسها وابتعدت عن رسمتها تتجول في الحديقة غاضبة مختنقة بأحاسيسها الغريبة التي اجتمعت في حلقها، جاءت مربيتها -أفوان/سولان- ووقفت قرب الحارس رامية بنظراتها على الرسمة تشاهدها في صمت ثم تحدثت مع الحارس..

- يبدو أن الأمر انتهى في الأعلى.. سيمتزج هذا المكان مع بعضه ويختفي من الوجود قريبا.
- ماذا عنها؟.. سأل الحارس.
- ستختفي معه أيضا، هي جزء منه.. عموده الذي يستند عليه.
- يعني أنها ستكون أول شيء سيتدمر... تساءل الحارس.
- أجل.. لقد بدأ الأمر! تلك الرسمة خير دليل على أن هنالك صدعًا داخلها.. سيستمر بالتوسع إلى أن يفقدها توازنها ويسقطها.

- ثم يتحطم كل شيء؟.. سأل الحارس.
- أجل.. أجابت المربية، صمتت قليلا ثم أردفت،.. علينا أن نخرج من هنا بعد وقت قصير، لم يعد لوجودنا سبب.. لندع الأمور تنتهي بسلام دون أن نعرقلها أو نتسبب في كارثة.

غادرت متجهة للقصر تاركة أزاليا في نوع من التشوش والاضطراب الظاهرين ضمن حركات يديها.. وقفتها.. وطريقة سيرها. أدار الحارس رأسه يشاهد مغادرة أفوان -المربية- ثم أرجع رأسه للأمام ليراقب أزاليا لكنه انتبه لذاك الشخص قرب جذع الشجرة المهتم بأزاليا هو الآخر.. ليس سعيدا بما يحدث معها الضيق والغضب يلونان ملامح وجهه بقوة. لقد كان صاحب البنفسجيتين.. الزعيم..

تحرك الحارس من مكانه يغادر هو الآخر فقد تم اخباره منذ قليل أنه لا يجب إحداث كوارث والمكان ينذر بعاصفة.

عند حلول الليل كان النوم بعيد المنال لجفون أزاليا، الرسمة كانت تدور في عقلها وتزعجها باستمرار، أين رأتها؟ متى رأتها؟ أسئلة لم تصمت طوال المساء لحد الصداع ولما اكتفت من الضجيج في رأسها قررت أن تمحي مصدرها من الوجود فنزلت إلى الحديقة أين تركت اللوحة.. الخدم ليسوا هنا بالتالي لا أحد سينظف من خلفها ولا حتى مربيتها قليلة الظهور أمامها والتي غادرت القصر بعدما تمنت ليلة سعيدة لأزاليا الجاهلة لكونها بمفردها في القصر.. أو في هذا العالم ككل ما عدا من اثنين، أحدهما ظلها الأبدي في كل العوالم -صاحب البنفسجيتين- وآخر تطوع ليبقى في الجوار ويشهد على لحظاتها الأخيرة.

الأمر تطلب شمعة واحدة لتصبح اللوحة مضرمة بالنار في الحديقة الخلفية للقصر.. احتراق الصورة داخل الإطار أعطى نفسا منعشا من الراحة لأزاليا، رفعت رأسها للسماء تستمتع بالنسيم الساخن ورائحة الحريق، ثم من بين كل ذاك الدخان نورٌ مشعٌ تصاعد للأعالي وعند نقطة ما من الصعود انبثق منه طائر ناري فاردا جناحيه بفخر في سماء الليل.
اتسعت عيون أزاليا من الدهشة متسائلة إن كان ما تراه حقيقيا أم من نسج خيالها فالأمر لم يتوقف في طائر العنقاء الضارب بجناحيه الهواء وإنما تمادى إلى تحويل الشرارات المتطايرة من النار لبتلات بلون الجمر.. تموضعت إحداها على يد أزاليا وقد شعرت بها بسبب دفئها فأنزلت رأسها تتأملها أمسكتها بين أصابعها وإذا بباب داخل ظلام حالك يُفتح في ذاكرتها ويذكرها بتلك الليلة أين خرجت من دفء سريرها بسبب بتلة.. بسبب حلم.. بسبب عجوز يدعى أولندر.

الدموع فاضت من عينيها وطائر العنقاء الملتهب أصدر صيحة وحلق بعيدا نحو الغابة، لم تتردد أزاليا في تتبعه لأنها كانت واثقة أنه سيؤدي بها إلى هناك.. إلى القلعة التي رسمتها فقد ظهر منها.
كانت تركض في الغابة وذكريات تلك الليلة تنبثق داخل عقلها تتذكر الطريق، تتذكر المنعطفات والسقطات.. ومن بين الفوضى المتضاربة داخل رأسها أشعت صورة صاحب العيون البنفسجية في عقلها فتوقفت عن الركض وسكنت مكانها تدير برأسها يمنة ويسرة تتفقد محيطها لكنه كان فارغا إلا من الأشجار وهي، الدخان كان يتراءى لها فاستغربت كيف تبدو أنها ما تزال قرب القصر بعد ذاك الركض الطويل.

بحثت عن الطائر في السماء لكن لم يتواجد في الأعلى.. ارتسمت ابتسامة جانبية على محياها تتذكر لما لم تجد البتلة في يدها حينها وكيف شعرت بالأرض تزلزل من تحت أقدامها ثم صوت الأحصنة المستشاطة التي أوقفت أنفاسها للحظات تماما كما هربت أنفاسها منها توا لما سمعت صوت الحصان خلفها يعيدها للحقيقة! رغم كونه واحدًا فقط إلا أن ظهوره في توقيت مماثل كان صادما. التفتت للخلف وقبل أن ترى ما قد يتواجد هناك تم سحبها للأعلى لتصبح جالسة في المقدمة على ظهر الحصان بين أحضان ذاك الحارس.

- سنذهب إلى هناك وننهي الأمر قبل الفجر.. هذا إن كان هناك واحد. قال مبتسما.

رمقته أزاليا باستغراب وهي تحاول أن تستوعب ما يفعله هذا الغريب ذو الرقعة التي لا يضعها إلا القراصنة، وبينما تفعل ذلك وجد عقلها تعليقا سخيفا يجاري حديثه
- كنت أعلم أن موعد إعدامي قد تم تحديده..
تنهدت خائبة الأمل، ليس لأن إعدامها قد تحدد حسب ما يقوله عقلها بل لأن مربيتها أنكرت ذلك..

- أنت معدمة منذ قرون يا فتاة.. قال ساخرا.
- يا فتاة؟.. أين آدابك يا هذا أنسيت من أكون؟! صرخت غاضبة لتقليله من قيمتها في كلامه ضاربة بمحتوى جملته عرض الحائط.
-كيف أنسى من تكونين أيتها الصغيرة..

وكز جبهتها المجعدة من غضبها ممازحا إياها ومشيرا لها بأن تلتف وتتمسك جيدا لأنه على وشك القفز من أعلى التلة، ولأن أزاليا قد زارت هذا المكان من قبل فقد علمت أنهما على وشك أن يهويا للأسفل فتناست كلامه وصرخت لتنبيهه لكن الأوان قد فات!

ها هو الحصان يحلق بهما في السماء وكأنه حصان مجنح خرج من كتاب من كتبها الخرافية، غير أنه لم يمتلك أجنحة بل أخذ يهوي بدوره نحو القاع بمجرد أن بلغت قفزته ذروتها. انكمشت أزاليا على عنق الحصان مغمضة الأعين صارخة بصوت يوقظ الأموات في المقبرة التي هم على وشك أن يحطوا في أرضها..

- أيها الغبي المتهور! كدت تسرق من رجل المقصلة شرف حصاد رأسي!
كانت أول جملة خرجت من شفتيها بعد أن أقلعت عن الصراخ أخيرا ما إن تأكدت أن جسدها ما يزال قطعة واحدة لكنها أوقفت الجدال لما لاحظت برجين في الأفق قمتها تشبه ما دونته على اللوحة ومع اقترابهما تبينت المعالم بشكل أفضل لتكون القلعة بالضبط كالرسمة.

نزلت من الحصان وتقدمت إلى الباب رفعت يدها لتطرق عليه لكن توقفت فهي لا تعلم كيف تواجه أولندر خاصة بعد فعلتها تلك، دخول مكتبته السرية والعبث بالمخطوطة التي دفنها بعناية، هو وثق بها لهذا أراها سره لكنها خانت الثقة فكيف يمكنها أن تنظر لعيونه.. كيف ستصوغ الاعتذار الذي ما هو سوى كلمات مبعثرة في الهواء، كم هو غاضب.. كم هو حزين من فعلتها تلك، يمكنها تفهم شعوره وما سيظنه بها لأنها مرت بنفس الأمر وكم كرهته، كم كرهت اللحظة التي سمعت فيها مربيتها تتكلم حول ذاك اليوم المشؤوم أين فقدت كلا من والدها وعرشها.. حياتها وكل ما كانت تعيش عليه، كم تألمت لمعرفتها أن الخيانة أتت من مصدر قريب جدا مصدر كانت تظنه الأمان لكنه كان عكس ذلك.

الحارس الذي جلبها إلى هنا دفع بالباب للأمام وهو يسأل إن كان هناك أحد إلا أنه لم يحصل على رد، دفع أزاليا برفق للداخل وأخبرها أن تبحث عن ضالتها، تنهي أسئلتها وتهدئ أفكارها. تقدمت بخطوات صغيرة وهي تشبك بيديها ضامة إياهما إليها من خجلها من مواجهته وأخذت ترمي بنظراتها في الأرجاء، لقد كان المكان موحشا فاقدا للروح.. أغلب النباتات متيبسة والقليل منها فقط ما يزال يقاوم رغم ذبوله، الكرسي الهزاز الذي يقابل المدفأة المنطفئة كان هناك فارغا.. تحسسته برفق تتذكر جلوسها عليه في السابق ثم استدارت للخلف فجأة ما إن أحست بالحركة.

الرماد المنثور على أرضية المدفأة لم يكن ساكنا، شيء ما منه كان يرتفع، أزاليا بقيت ساكنة مكانها تراقب لا غير.. تشاهد كيف لذلك الطائر أن ينفض عنه الرماد ويولد من تحته، لم يكن طائر عنقاء جديدًا وهذا هو الغريب لأن الأساطير لا تحمل في طياتها أي طائر يولد من الرماد غير العنقاء.. لذا هذا الطائر الصغير يدون لنفسه أسطورة هو يكونها، طائر الجاي الذي يمثل

شعار المملكة التي خسرتها جاء ليبحث عنها في مكان بعيد ليخبرها أنها مالكته الوحيدة ولن يكون عند شخص آخر غيرها، هذا ما فكرت فيه ريثما تنظر إليه.

ضرب الطائر بجناحيه فارتفع في الهواء ثم طار باتجاه السلالم وما كان عليها سوى تتبعه فأوصلها إلى العلية أين وقفت قبالة بابها للمرة التي تجهل عددها، تضع كفها على سطحه الخشبي المتشقق تتساءل أهي تبدو مثله الآن أم أما تزال فتية بعض الشيء.. ما يزال بإمكانها الصمود أكثر.

دفعت بأحد الأنصاف فقابلتها الطاولة في الوسط مع مزهرية نحيفة مزينة بوردة حمراء وعلى عكس كل شيء هنا الوردة كانت ممتلئة بالحياة والبهجة أما الطائر فقد كان جالسا على إطار النافذة يغرد بصوت خافت كأنه يعزف سمفونية حزينة.. سمفونية الوداع.

تقدمت أزاليا نحو الطاولة وداعبت بتلات الزهرة بلطف بعيونها الممتلئة بالدموع، ليس من الصعب عليها تفهم أن أولندر ليس بالجوار وأنه لن يعود.. المكان ميت بشكل حزين وهذا ما هو إلا إشارة لختفاء أولندر منه منذ مدة.

لاحظت ورقة مطوية تحت المزهرية فسحبتها تقرأ محتواها وهي تبتلع شهقاتها، تلعن نفسها لما اقترفته من ذنب في حقه، لقد فهمت أخيرا ما كانت تعنيه حورية البحيرة لما أخبرتها: "عليكِ دفع ثمن ثقيل لأجل زهرة النرجس، لا بد من تعويض.. لذا هل تقبلين بأخذ أعز ما تملكينه لأجل الحصول على الزهرة؟"..

تلك اللحظة كل ما فكرت فيه أنها لا تملك ما تخسره بعد خسارتها للعرش ومملكتها، ماذا قد يتواجد لإعطاءه والندم عليه، ما الذي قد يصعب عليها أن تقايضه في هذه الصفقة، الأمور لحظتها بدت في صالحها لهذا لم تتردد في الموافقة.. لم تتريث في التفكير أكثر لعلها تعثر على شيء ما مخفي في أعماقها تهتم لأمره لحد الجنون ولم تكتشف وجوده بعد.. شيء يحترق تحت رماده يحاول أن يولد.. لم تعطِ للتردد فرصة، وافقت وأنهت الأمر. النتيجة لم تكن نسيانها لماضيها أو نفسها.. لقد كان عبارة عن بتر لآخر جذر يمكنها أن تتغذى عليه.. انتزاع أولندر من تربته المحترقة.

" إلى نجمتي الأبدية..
زهرتي الأزلية..
كما تعهدتُ بتتبع نورك كلما سطع
وكما وعدتني بإنهاء عذابي الأزلي الذي لم يره أحد يلمع..
أعلن أن لحظة الوداع نبتت
وأن النهاية بين مسارينا المتعاكسين أزهرت.
لذا.. وداعا..
يا حبي الأبدي،
أمسيهار".

هذه الكلمات كانت أقسى عتاب تتلقاه وما يجعلها خانقة هو صورة أولندر المبتسمة التي كانت تشع داخل رأسها تتخيله يقول جمل وداعه وجها لوجه والحزن يغرق نظراته. أيوجد أسوأ من رؤية أحدهم يبتسم لك مقابل الألم الفظيع الذي قدمته له.. يبتسم للطعنة البروتوسية التي أهديتها له مقابل الثقة والأمان اللذين لونك بهما داخل نفسه ويقرر أن يسقط خاسرا لكل شيء.. بما في ذلك الحياة بأكملها على إثرها رغم أنه ظل صامدا شامخا ممتلئا بأكثر من جرح وطعنة. لم تتحمل أزاليا، خرت باكية

على الأرض مع شهقاتها المتزايدة وكل شيء تهاوى معها.. القلعة تهاوت للأسفل نحو الفراغ ومعالم المكان راحت تتساقط في الظلام.

كان الحارس يطفو في الهواء يشاهد التحطم المهيب الذي يجري تحت أقدامه، نزع الرقعة التي يغطي بها عينه اليسرى فظهرت القزحية البنفسجية ولم يمض على تعريتها لحظات حتى يتسع بؤبؤها تحت تأثير الدهشة ما إن مر أحدهم بجواره في اتجاه الأسفل، لقد كان الزعيم صاحب البنفسجيتين عائدا للأعلى حاملا جسد أزاليا بين ذراعيه، لم يكن ليسمح أن تدفن محبوبته في الضياع للأبد.
في الهواء كان كل من الحارس والزعيم يطفوان قرب بعضهما ينتظران انبلاج الضوء في الأفق الذي سيؤدي لمحو هذا العالم من الوجود في انفجار عبارة عن ضغطة خانقة عليه.

- هي تنتمي إلى هنا.. الحجر الأساسي لهذا العالم فلماذا أنت تسرقها منه؟.. قال الحارس أو بالأحرى اللورد إكس، الوريث الشرعي لعرش من عالم آخر.. وجنس مختلف.

- أتظنني سأسمح له بدفنها في نقطة بعيدة من الكون ليكمل إخفاءها حتى بعد موته، ما ألعنه! أجاب الزعيم داركوس، صاحب العرش الفعلي من ذاك العالم الآخر الذي ينتمي إليه اللورد إكس.

- إذا ماذا الآن.. هل ستضعها زينة في جدار قصرك كما يفعل البشر بحيوان الرنة ؟.. سأل إكس ساخرا.
- بل ملكة على عرش مملكتي... أجاب داركوس بابتسامة جانبية وهو يتقدم للأمام فقد لمح نورا خافتا يلون الأفق.

- سنشهد حربا طاحنة من نوع آخر إذن. قال إكس وهو يتقدم خلف داركوس.
- وسأفوز بها مهما كلف الثمن هذه المرة. ردَّ عليه داركوس قبل أن يختفي.

- سأنتظر تلك اللحظة لأصفق لك إذن.

قال اكس -مقلبا عينيه في الفراغ الأسود الذي هو كل ما يجود حوله يعطي لهذا المكان آخر نظرة- الكلمات الأخيرة المنطوقة في هذا العالم الذي آنت لحظة اندثاره اضمحلاله وزواله للأبد، ثم اختفى منه بدوره.

****

-ختام-

كانت غرفة متوسطة الحجم بسرير بسيط ومنضدة قربه تتموضع عليها كرة زجاجية بداخلها عالم مصغر من جزيرة وسط الماء. داركوس كان واقفا قرب السرير الذي يرقد عليه شخص ميت تجمدت جفونه على وضعية الانفتاح، جثته كانت باردة وشفتاه المزرقة خير دليل، وضع داركوس أصابعه على جبهة الشخص الميت وأنزلهم مارا بعيونه يغلقها وهو يقول..

-كنت تعلم أنك ستخسر القتال قبل آلاف السنين لكنك صمدت حتى آخر نفس.. لا أظنني أشفق عليك فقد سببت لي متاعب مؤهلة لدخول سجل تاريخي خاص.. لوغود.. سأدون هذه الحروف بدمائي في الصفحات التي تحمل اسمك، ولن أنسى أن أخبر الكون بأنك صرت أولندر في مكان آخر أين قامت آخر معركة بينا وانتهى صراعنا الطويل بفوزي.. أنا.. أعدك.

ضباب بنفسجي أحاط بداركوس انتقل به من المكان لمكان في بعد آخر.. حيث ينتمي.. وحيث غاب لدهر من الزمن عنه، إلى برينكلاسيا.

النهاية.